مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٦ المجلد ١٦/ العدد ١١

الصوت الثوري الملتزم ضدّ المستعمر الدخيل
(قصائد توفيق زيّاد ومفدي زكريا أنموذجاً)

م.م مهدي علاوي شكير
المرشح للدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة شيراز، إيران
Mahdealwae@gmail.com
أ.د. حسين كياني
أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة شيراز، إيران
hkyanee@yahoo.com
أ.د سيد فضل الله ميرقادرى
أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة شيراز، إيران
sfmighaderi@gmail.com

الكلمات المفتاحية: أدب المقاومة، الأدب الجزائري، الأدب الفلسطيني، توفيق زيّاد، مفدي زكريا

كيفية اقتباس البحث

شكير، مهدي علاوي ، حسين كياني ، فضل الله ميرقادرى ، الصوت الثوري الملتزم ضدّ المستعمر الدخيل(قصائد توفيق زيّاد ومفدي زكريا أنموذجاً)،مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، تشرين الثاني ٢٠٢٦، المجلد:١٦ ،العدد:١١ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

The committed revolutionary voice against the intruding colonialist (Poems of Tawfiq Ziyad and Mufdi Zakaria as an example)

Mahdi Alawi Shakir
PhD Candidate, Department of Arabic Language and Literature, Shiraz University, Iran
Prof. Dr. Hossein Kiani
Professor in the Department of Arabic Language and Literature, Shiraz University, Iran
Prof. Dr. Sayed Fazlullah Mirqadri
Professor in the Department of Arabic Language and Literature, Shiraz University, Iran

Keywords : Resistance Literature, Algerian Literature, Palestinian Literature, Tawfiq Ziad, Mufdi Zakaria.

How To Cite This Article
Shakir, Mahdi Alawi, Hossein Kiani, Sayed Fazlullah Mirqadri, The committed revolutionary voice against the intruding colonialist(Poems of Tawfiq Ziyad and Mufdi Zakaria as an example),Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, November2026,Volume:16,Issue 11.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract:
The issue of the occupation of Palestine and Algeria sparked revolutionary ideas in the minds of Palestinian and Algerian poets, who composed committed revolutionary poems, seeking to remove the mask of injustice and colonialism from the faces of Zionism and France. Tawfiq Zayyad and Mufdi Zakaria are two contemporary Palestinian and Algerian poets who recognized the presence of colonialism in their countries and sang fiery poems that expressed their committed revolutionary voice for liberation from colonial rule. This research is based on the social approach and aims to study the committed revolutionary voice against the foreign colonizer in the poems of these

two poets, relying on three main axes, which are: Liberation from colonial control, mentioning the crimes of the occupiers and condemning their inhumane actions, praising the fighters and martyrs against the invading colonizer. The two poets stood sincerely against colonialism and its brutal acts, and with their committed revolutionary voices, they expressed their deep resentment of the presence of colonialism in their country, encouraging the people to liberate themselves from this evil phenomenon, Pointing out the crimes of the colonizer in their country and condemning its inhumane actions, and praising the fighters and martyrs who made great efforts to defeat colonialism and achieve the country's independence.

الملخّص

أثارت قضيّة إحتلال فلسطين والجزائر أفكاراً ثوريةً في أذهان الشعراء الفلسطينيين والجزائريين، فنظموا قصائد ثورية ملتزمة، سعياً منهم إلى نزع قناع الظلم والإستعمار عن الوجه الصهيوني والفرنسي. يعدّ توفيق زيّاد ومفدي زكريا من الشعراء الفلسطينيين والجزائريين المعاصرين الذين أدركوا وجود الإستعمار في بلديهما، وأنشدوا من أجل التحرّر من الحكم الإستعماري، قصائد نارية تعبّر عن صوتهم الثوري الملتزم. يعتمد هذا البحث على المنهج الإجتماعي و يهدف إلى دراسة الصوت الثوري الملتزم ضدّ المستعمر الدخيل في قصائد هذين الشاعرين معتمداً على ثلاثة محاور رئيسية، و هي: التحرّر من السيطرة الإستعمارية، ذكر جرائم المحتلين وإدانة أفعالهم اللاإنسانية، مدح المقاتلين والشهداء ضدّ المستعمر الدخيل. لقد وقف الشاعران بصدق، ضدّ الإستعمار وأعماله الوحشية، وأظهرا بصوتيهما الثوريين الملتزمين، إستياءهما العميق من وجود الإستعمار في بلدهما، مشجّعَين الشعب إلى تحرير نفسه من هذه الظاهرة الشريرة، مشيرَين إلى جرائم المستعمر في بلادهما ومُدينَين أفعاله اللاإنسانية، ومُشيدَين بالمقاتلين والشهداء الذين بذلوا جهوداً كبيرة في دحر الإستعمار وتحقيق إستقلال البلاد.

المقدمة:

أخذ الشعر العربي الحديث قوّته و سطوته من مجتمعه الذي نشأ فيه و صور حياة أفراده خير تصوير و ذلك بإختيار المفردة الموحية بما تمتلكه من قوّة و معنى و جرس موسيقى، فرسم الشعر بذلك صورة فنية قويّة و مؤثّرة و قد تمّ ذلك كلّه بفضل تخطي الشاعر بشعره الحدود الذاتية ليعبّر عن مجتمعه و أهله خير تعبير و بذلك وصل إلى قمّة الجمال الشعري ليسجّل لنا مناظر حزينه و مؤثّره في الوجدان لنضال هذه الأمة التي رزحت تحت حكم العدو. الشعراء الثوريون بمشاعرهم الصادقة يتغلغلون في أعماق القلوب و يوقظون الضمائر النائمة. و لهذا يقف هؤلاء الشعراء في صفوف المناضلين في الثورة و يدافعون عنها بقلمهم.

لقد كان توفيق زيّاد من الشعراء المؤمنين بقضايا أمتهم و قد سخّر شعره في سبيل خدمة أبناء وطنه و قضاياهم و خصوصاً القضيه الفلسطينية حيث أنّه دوّن الأحداث الدامية و المشاكل السياسية التي وقعت في هذه البقعة المباركة من الوطن العربي و التي عاث فيها الكيان الغاصب قتلاً و تنكيلاً. يُعرف مفدي زكريا بأنّه شاعر ثوريّ و سياسيّ معاصر في الجزائر، تتناول قصائده موضوعات المقاومة و السياسة و الثورة ضدّ الإستعمار الفرنسي و تموج في قصائده روح الإحتجاج و الصراخ و الغضب و النضال. هما من الشعراء الملتزمين الذين إهتموا بقضايا و مشاكل مجتمعهم و المجتمعات الأخرى المضطهدة في قصائدهم و تمرّدوا على الأنظمة الإستبدادية و دعوا الناس إلى الثورة ضدّ المستعمر الدخيل. فهذا وليد الظروف و الأحداث المصاحبة لفترة زمنيّة معيّنة، و قد إعتمده الشاعران كنوع آخر من أشكال المقاومة بدل الرصاص و البندقية، فقد وجدا في كتاباتها و أقلامهما المتنفّس الوحيد لنقل الوضع و الأحداث بحذافيرها، و تصوير الواقع كما هو تصويراً حقيقياً دون زيادة أو نقصان. يعتبر شعرهما من أكبر العوامل المساهمة و بشكل كبير في نشر الوعي و التحريض على الثورة وسط الأفراد و الدفع بهم للرّفض و عدم تقبّل الوضع و الخروج من قوقعة الإستعمار، و محاولة إثبات وجوده و ذاته، فالكلمة لها وقع و أثر أكبر من وقع الرّصاص في تغيير الأوضاع و إنارة الطريق للأفراد، لاسيّما إذا كانت هذه الكلمة تلامس عواطفهم و أحاسيسهم و تصوّر أوضاعهم تصويراً صادقاً.

نعتزم في هذا البحث دراسة الصوت الثورى الملتزم ضدّ المستعمر الدخيل في قصائد توفيق زيّاد و مفدي زكريا في مجال الأدب المقاوم، محاولين الإجابة على السؤالين التاليين:

-ما هي أهم المواضيع التي أنشدها الشاعران ضدّ المستعمر الدخيل؟

-كيف يتجلى الصوت الثورى الملتزم ضدّ المستعمر الدخيل في قصائد هذين الشاعرين؟

خلفية البحث

بحسب البحوث التي تمّ إجراؤها، لم يتمّ العثور على خلفية لدراسة الصوت الثورى الملتزم ضدّ المستعمر الدخيل، إلا أنّ الباحثين قاموا بشكل مستقل و منفصل بإجراء أبحاث حول كلّ من الشاعرين، و التي تشمل:

-نصار (٢٠٠٢)؛ يتحدّث الباحث هنا عن القصيدة و كيف أصبحت تمثّل الشخصية الفلسطينية من خلال قيامها بحمل هموم و تطلّعات الشعب الفلسطيني و قد مثّل الشاعر توفيق زيّاد هذه القضية خير تمثيل و كيف جسّد الشاعر روح المقاومة و الثورة في قصائده من خلال تجسيد كلّ ما يتعرّض له الشعب الفلسطيني و كلّ ما يتطلّع له في أشعاره و كيف مثّل هذه الشخصية بذكر كلّ ما يمتّ إليها بعلاقة سواءً كان تراثاً شعبياً أو مكاناً بعينه أو غيره.

–مواسی (۲۰۰۵)؛ یحاول الباحث هنا أن یتکلّم عن توفیق زیّاد و عن دوره في تضمین قصائده حکایات و أساطیر، حیث نری النفس القصصي واضحاً في طریقة العرض و کیف إستخدم الشاعر عناصر القصة من حبکة و غیرها حتی أصبحت القصیدة / القصة من ملامح کتابته الشعریة، و نلاحظ مدی تفاعل القاصّ و ما یحکیه و یرویه للناس.

–دحمانی (۲۰۰۵)؛ تبیّن الباحثة فی هذه الرسالة عن مفدي زکریا و البحث عن أسباب الغربة التي یعیشها الشاعر، و تذکر أیضاً الأسالیب التي إتّبعها الشاعر من أجل أن یوصل هذه الفکرة لأبناء شعبه، و لکلّ الأحرار في العالم.

–قادری (۱۳۸۵)؛ إنّ الهدف من هذه المقالة دراسة صور من الأثر القرآنی لدی مفدي. إنّ الباعث الحقیقي لهذا البحث هو أنّ الشاعر علی الرغم من الظروف الصعبة التي کانت في ذلك الزمن إلا أنّه إستطاع حفظ القران الکریم و کذلك تعلّم العلوم الدینیة و إستقرّ القران الکریم في ذهنه و روحه، لذلك نجد أنّ کلمات القران و معانیه حاضرة في أشعار الشاعر و متجلیة بشکل واضح في مواقفه، و قد ظهرت نماذج واضحة من هذا التأثر في دیوان «اللهب المقدس» و الذي یعدّ أنشودة الثورة الجزائریة.

بالنظر إلی البحوث التي أجریت علی قصائد الشاعرین نجد أنّ الباحثین مثل سیمون نصار قد تناولوا روح المقاومة و الصمود للشعب الفلسطیني في بعض قصائد توفیق، کما ناقش فاروق مواسي عناصر القصة في بعض قصائد توفیق و درسها. و قد قامت الباحثتان مثل حمة الدحماني و فاطمة قادري بدراسة ظاهرة الغربة و التناص القرآني في بعض قصائد مفدي زکریا. لم نذکر هنا إلا نماذج من الأبحاث التي تناولتها کل علی حدّة في قصائد الشاعرین. من خلال البحث في المواقع الإنترنتیة عن الشاعرین نجد أنّه لا یوجد أي بحث علی الإطلاق حول الصوت الثوري الملتزم ضدّ المستعمر الدخیل في قصائد توفیق زیّاد و مفدي زکریا، و هذا بحدّ ذاته دلیل علی إدعائنا بأنّ هذا البحث جدید وغیر مطروق، و لم یکتب مثل هذا المقال داخل إیران أو خارجها.

۱.المنهج الإجتماعي

المنهج الإجتماعي یعني بإرتباط الأدب و الأدیب في الحیاة في وجوهها کافّة، کما أنّه یعني بظروف الحیاة السیاسیة و الإجتماعیة و الإقتصادیة، و خصائص البیئة الجغرافیة و المعیشیة، و سیرة الأدیب و حیاته العامة و الخاصة، و ما تقلّب فیه من أحداث و ظروف و ملابسات، و نحو ذلك. «العلاقة بین الأدیب و مجتمعه علاقة جدلیة، فالأدیب یتأثّر بمجتمعه و یؤثّر فیه تصنعه ظروفه و أحواله الإقتصادیة و الفکریة و السیاسیة، و إنّ رؤیة الأدیب الفکریة، و فلسفته

عن الحياة و الكون، إنّما تتبلوران بتأثير المجتمع و المحيط و التربية، و الأديب يؤثر في مجتمعه، فيسهم في تطويره و إصلاحه، و قد تحمل كتاباته بذور الثورة و التغيير و صياغة مشاعر الناس و أحاسيسهم على نمط معين.» (قصاب؛ ٢٠٠٩: ٣٧) حسب ما قيل، نجد أنّ توفيق زيّاد و مفدى زكريا تأثّرا ببيئة مجتمعهما و إنعكسا الصوت الثوري الملتزم ضدّ المستعمر الدخيل في قصائدهما. و لذلك سنقوم بدراسة و تحليل منهج المنهج الإجتماعي في قصائدهما.

تكمن ضرورة إجراء هذا البحث في أنّ إستكشاف القصائد الملتزمة و الثورية لهذين الشاعرين ضدّ الاستعمار، على الرغم من اختلاف بيئتيهما الجغرافية، يمكن أن يساعد في تبيين الآلام المشتركة للشعب الفلسطيني المضطهد ضدّ النظام الصهيوني و الشعب الجزائري ضدّ الإستعمار الفرنسي.

يعتبر توفيق زيّاد من روّاد الشعر المقاوم، إلى جانب شعراء المقاومة الفلسطينيين الآخرين كمحمود درويش و سميح القاسم. يُعدّ مفدى زكريا أيضاً من أبرز الشعراء الجزائريين، و يتجلّى صوت الجزائر و مقاومة شعبها في معظم قصائده. كان إختيار هذين الشاعرين للدراسة و البحث مستهدفاً، و ذلك لأنّ قصائدهما لعبت دوراً بارزاً في إذكاء روح المقاومة في البلدين فلسطين و الجزائر. إنّ دراسة قصائدهما يمكن أن توضح أبعاد صمود الشعبين الفلسطيني و الجزائري بشكل أفضل، لأنهما يعتبران من أبرز شخصيات أدب المقاومة، و من الضروري التطرق إلى قصائدهما.

٢.نبذة عن حياة توفيق زيّاد

إنّ توفيق زيّاد كان من ألمع شعراء فلسطين بعد محمود درويش و سميح القاسم، و عاش في فترة قد رأى بأمّ عينيه الكارثة و المأساة و حادثة النكبة التي قد جرت في حياة الفلسطينيين، فالمقاومة ظاهرة بارزة في شعره. هو شاعر الشعب و القضية كان إبناً باراً لوطنه فلسطين و كان يخدم بلده و أرضه. كان إلتزامه من أجل وطنه و في ضوء ظروف مرّت بها فلسطين و البلاد العربية.

يقول روبرت كامبل اليسوعى عن حياة توفيق زيّاد: «ولادته فى الناصرة سنة ١٩٢٩م بفلسطين، و وفاته سنة ١٩٩٤م. هو عامل موظّف، شاعر، كاتب. رئيس بلدية الناصرة منذ ١٩٧٥؛ عضو في الكنيست الإسرائيلي منذ ١٩٧٤. عضو المجلس المركزي للحزب الشيوعي؛ عضو سكرتارية اللجنة القطرية لرؤساء المجالس العربية في إسرائيل. محرّر مجلة الجديد الأدبي سنتين (١٩٦٦ – ١٩٦٨). أقام بالإتّحاد السوفياتي سنتين (١٩٦٤–١٩٦٥)، و زار الولايات المتحدة الأمريكية و كندا و بعض البلدان الأوروبية الغربية و الشرقية. متزوّج و له أربعة أولاد.»

(اليسوعي؛ ١٩٩٦: ٦٧٩/١) من أهمّ مؤلّفاته في الشعر، هي: ديوان الشعر، أشدّ على أياديكم، سجناء الحرّية، أنا من هذى المدينة و ... .

يتحدّث سيمون نصار عن الدور الهامّ الذى لعبه توفيق زيّاد بين الشعراء الذين كانوا يمثّلون جيل الروّاد و قد كان زيّاد بينهم الأكثر نشاطاً: «في منتصف الخمسينات تنضمّ أصوات الشعراء الروّاد لتجسد معاً صوت شخصية شعبهم الجماعية المستيقظة، أرادت به حماية ذاتها، و الدفاع عن وجودها، و عن هويتها القومية، و قد أنطقها به سياسة الصهيونية القائمة على السكّين و المذابح، و يأتي صوت زيّاد ضمن أصوات زملائه من الشعراء في هذه المرحلة عالياً و مدويّاً يوزّعه في مجموعة قصائد، منها ما هو قومي، يعرض فيه بعض جوانب الإستعمار الغربي للمنطقة، و منها ما هو وطنيّ خاصّ في سبيل الحفاظ على الهويّة الفلسطينية، و إبراز ملامحها أمام مبارد العنصريّة الصهيونيّة، التي بقيت منذ قيام دولتها تنحت في لحم البقية الباقية من الفلسطينيين في أرض أجدادهم و آبائهم، محكومة بشعار (المزيد من الأراضي و الأقلّ من العرب).» (نصار؛ ٢٠٠٢: ٢-٣)

٣.نبذة عن حياة مفدي زكريا

لقد عرفت الساحة الأدبية في الجزائر لاسيّما أثناء الثورة التحريرية بروز نخبة من الشعراء الذين ناضلوا بشعرهم، فقد كانوا يدعون الشعب إلى الثورة و التحرر، و من أبرز هؤلاء الشعراء نجد مفدي زكريا الذي كان يعبّر عن رفضه للإستعمار بطريقته القلمية إذ ملأت أشعاره أرض الجزائر بصداها، و منذ ذلك الوقت أصبحت سائرة على كلّ لسان.

هو الشاعر زكريا بن سليمان بن يحيى بن الشيخ سليمان لقبه زميل البعثة الميزابية و الدراسة «سليمان بوجناح» بـ «مفدي» فأصبح لقبه الأدبي الذي إشتهر به. (السنوسي؛ ٢٠٠٧: ٢٥٣/١) ولد بقرية «بني يسجن» سنة ١٩٠٨م و تعلّم فيها القرآن الكريم و بعض القوانين الفقهية. ثم إنتقل إلى تونس في بعثة علمية، و درس في المدرسة «الخلدونية» و فيها تحصّل على الشهادة الثانوية. ساهم بفعّاليّة في النشاط الأدبي و السياسي قبل الثورة التحريرية و دخل السجن خمس مرات متوالية و بعدها إلتحق بصفوف جيش التحرير في الخارج. عاش بعد الإستقلال في تونس و المغرب و توفّي في تونس بسكتة قلبية عام ١٩٧٧و دُفن في واد ميزاب. من أشهر مؤلفاته في الشعر: اللهب المقدس، تحت ظلال الزيتون، إلياذة الجزائر، أمجادنا تتكلم و ... .

يقول يحيى الشيخ صالح عن الفكر الثوري لمفدي زكريا و دور قصائده في إستقلال الجزائر من براثن الإستعمار: «غذّى بفكره الثوّار و خلّد الثورة، و كان معادياً للإستعمار بكلّ أشكاله لذا

سخّر شعره و وهب حياته في محاربته و إدراك الحرية و الإستقلال التي يراها حقّاً من حقوق الشعب، و قد ظلّ طيلة حياته ينادي بإستقلال الجزائر و البلدان العربية و الإسلامية و توحيدها... فلم تكن الثورة عنده مجرّد حدث يواكبه شعر و إن كانت موقفاً و مطلباً ضرورياً لتحقيق الحرية الوطنية و المغاربية العربية و تخليص الأمة الإسلامية من نير الإستعمار.» **(صالح؛ ١٩٨٧: ٥٦)**

٤.الصوت الثورى الملتزم ضدّ المستعمر الدخيل فى قصائد توفيق زيّاد و مفدي زكريا

١-٤. التحرّر من السيطرة الإستعمارية

من أكثر القضايا السياسية و الثورية شيوعاً في القرن العشرين في الدول العربية هي قضية النضال ضد الإستعمار، لأنّ الأمة العربية تعرّضت في تلك الحقبة للغزو من قبل الدول الإستعمارية. إستعرض الأدب في ظلّ هذه الظروف، الأحداث التي حلّت بالأمة. و لذلك، تُعدّ مناهضة الإستعمار و الدعوة إلى ضرورة التحرّر منه، من أبرز مواضيع الشعر الثوري و السياسي المعاصر. في هذه الأثناء، دخل الشعراء الفلسطينيون و الجزائريون الملتزمون، إلى جانب الشعوب المضطهدة، إلى ساحة النضال ضدّ الإستعمار، و ساعدوا بسلاح شعرهم، مواطنيهم على تحقيق الإستقلال و الحريّة و التحرّر من قيود الظلم. إنّ الشعور الوطني و مقاومة مطامع الإستعمار و رفضه لها، دفع الشعراء إلى محاربته. و لذلك، لم ينس شعراء مثل توفيق زيّاد و مفدي زكريا دورهما في فضح الإستعمار و فكّ خداعه في مجال الشعر.

إنّ كلا الشاعرين يشعران بإستياء عميق من وجود الإستعمار في بلديهما و يعبّران عن عدم رضاهما عن هذه القضية في قصائدهما. كان توفيق زيّاد من أبرز روّاد لفت الإنتباه إلى مأساة فلسطين التي رزحت تحت الإحتلال. كان يشعر بواجب تجاه فلسطين، و بالأخصّ تجاه وطنه و أبناء وطنه، فخصّص شعره لها. يندّد توفيق بشدة إحتلال فلسطين و يقول إنّ المحتلين حوّلوا أرض فلسطين إلى مقابر، و نهبوا ممتلكاتها، و حرموا الشعب من راحته و سعادته. هو يقول فى «سجناء الحرية»:

«ما رأيُكم في الوطنِ الذي/ ملأتُم ربوعَه مقابر...؟!/ أطفَأتُمْ في كُلِّ قَلْبٍ جَذْوَةَ الفَرَح/ سرقتُم النبيذَ و المِلحَ و أقواسَ قزح/ و بسمةَ الأطفالِ و الضّحكَ البرئ و المَرَح.» (زيّاد؛ ١٩٩٤: ٨٠)

يقول الشاعر فى قصيدة «مليون شمس فى فمى» التى قد جاءت فى مجموعته الشعرية «أدفنوا أمواتكم و انهضوا»، إنّ الإستعمار قد سلب كلّ شيء من الفلسطينيين:

«سلبونى كلَّ شيء:/ عتبةَ البيت، و زهرَ الشرفة/ سلبونى كلَّ شيء/ غيرَ../قلبٍ،/ و ضميرٍ،/ و شَفَه!!» (زيّاد؛ ١٩٧٠: ٢٣٣)

مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٦ المجلد ١٦/ العدد ١١

إستثنى الشاعر (قلب، ضمير، شفة) من كلّ شيء سلب العدو الغاصب من الشعب الفلسطيني و الشاعر يريد أن يقول بقدرة شاعريته و براعة الشعرية ألا نمتلك الشيء غير قلب و ضمير و شفة. فليس لديه شيء غير قلب يعشق الوطن و ضمير قد مُلأ بالعشق لوطنه و شفة لم تتكلّم إلا عن الصمود و المقاومة عن وطنه النبيل حُبّاً للشعب الفلسطيني، فأفدى الشاعر روحه و عشقه للوطن قلباً و ضميراً و لساناً.

كما شبّه مفدي في قصيدة «و تكلّم الرّشاش جلّ جلاله!!» الإحتلال الإستعماري الفرنسي لبلده بالزلزال الذي حدث فجأة، فيقول:

أجهنّمُ... هــذى التي أفــواهُها ... مِن كــلِّ فــجٍّ، نقمــــــةٌ تتفجّر؟؟
أم أرضُ ربِّك، زلزلت زلزالُها ... لمّا طَغَى، في أرضِه، المُستعمِر؟

(زكريا؛ ٢٠٠٧: ١١٥)

تبيّن مفدي في قصيدة «و تعطّلت لغة الكلام..» أنّه مع وصول الإستعمار إلى بلده أصبحت الرصاصات تتكلّم:

نطقَ الرّصاصُ، فمــا يُباحُ كلامٌ ... و جَرَى القصاصُ، فما يُتاحُ ملام
و قَضَى الزّمانُ، فلا مردَّ لِحُكمِه ... و جَرَى القضاءُ، و تمّت الأحكـام..
وسعت فرنسا للقيامة، و انطوى ... يــــــومَ النّشور، و جفّت الأقلام

(م.ن: ٤١)

لم يُفكّر توفيق زيّاد في السّلم مع الإستعمار إطلاقاً، و رغم أنّ يديه و قدميه كانتا مُكبّلتين بالسّلاسل، إلا أنّه دعا الشعب إلى النضال و الصمود للتحرّر من السيطرة الإستعمارية. فهو يحملها مشاعر الغضب على العدوّ بصيغة حماسيّة خطابيّة مجلجلة، كما في قصيدته «من وراء القضبان»:

ألقُوا القُيُــودَ عَلَى الْقُيُودِ ... فــــالْقَيْد أوهَى مِنْ زَنُودي
لي مِن هوى شعبي و مِن ... حبِّ الكفاح و مِنْ صُمُودي
عــــزمٌ تسعّــــر في دمي ... نــــاراً على الحطب الشّديد

(زيّاد؛ ١٩٧٠: ١٠٢)

كما واصل مفدي إنشاد الشعر عن الثورة و المقاومة أثناء سجنه في «البرواقية». نظمت قصيدة «إقرأ كتابك..» بقعر زنزانة رقم ٣٧٥ بسجن «البرواقية». يؤكّد في الأبيات التالية على النضال و تحرّر الجزائر من السيطرة الإستعمارية:

إنّ الجــزائرَ في الوجـــــود رسالةٌ ... الشّعـــبُ حرّرها، و ربُّك وَقّعا
نظمَت قــوافيها الجماجمُ في الوغى ... و سَقَـــــى النّجيعُ رويَّها، فتدفّعا
غنّـــى بها حُـــرُّ الضّمير، فأيقظَت ... شعبــاً إلي التحرير شمّر مُسرِعا
و دَرَى الأُلى، جحدوا الجزائر، أنّها ... ثارت، و حكّمت الدّما، و المدفعا

شقّت طـــــريق مصيرها بسلاحها و أبـت بغيـر المنتهى، أن تقنعا

(زكريا؛ ٢٠٠٧: ٥١-٥٢)

يعتبر زيّاد المقاومة هي السبيل الوحيد لإستعادة الأراضي المحتلة، فهو يقول فى المجموعة الشعرية «أغنيات الثورة و الغضب» فى شعر «قامتنا»:

«هذا قَدرُ الأحرارِ فصبراً/ أمتنا الكبرى/ تَحفِرُ للمستعمر،/ (فليفهمْ أَيْتَامُ الْمُسْتَعْمِر) – قَبْراً/ و تُعَمِّدُ بِالنَّارِ الحَمْرا/ حتى تَبَرّأ/ أمتنا الكبرى... الكبرى/ قامَتُها – ليست أقصر/ من قامات الأمم الأخرى.» (زيّاد؛ ١٩٧٠: ٤٧١-٤٧٢)

يؤمن توفيق زيّاد بأنّ مواجهة الإستعمار تتطلّب الصمود و الصبر في سبيل الوطن. و يعتبر أمته أمة عظيمة في محاربة الإستعمار، تقف إلى جانب الأمم المناضلة، و ستقضي على المستعمرين.

الهدف الرئيسي لتوفيق زيّاد في قصائده هو إنقاذ وطنه و أبناء وطنه من السيطرة الإستعمارية، و حمايتهم و تشجيعهم على الحفاظ على أرضهم و محاربة الأعداء المحتلين. يقول فى قصيدة «أناديكم» من ديوان «أشدّ على أياديكم»:

«وقفتُ بوجه ظلامي / يتيماً، عارياً، حافي/ حملتُ دمي على كفّي/ و ما نكستُ أعلامي/ و صُنتُ العشبَ فوقَ قبورِ أسالفي/ أناديكم .... أشدّ على اياديكم.» (زيّاد؛ ١٩٩٤: ١٢٤)

في هذه الأبيات، نرى إلتزام الشاعر بوطنه، مؤكّداً على مواصلة النضال و دعمه، داعياً جميع أبناء وطنه إلى مساعدته في هذا الطريق. يدعو العدوّ للقتال، و يريد أن يضحي بحياته دفاعاً عن وطنه. و رغم أنّ الشاعر إستخدم في هذه الأبيات مونولوجاً، و تحدّث عن نفسه، إلا أنّه جسّد في شخصه الأمة الفلسطينية بأسرها، المستعدّة للقتال و الدفاع بكل ما أوتيت من قوّة. قوله (و ما نكستُ أعلامي) هو دلالة على رفض الخضوع للظلم، كما أنّه يعتبر صيانة (العشب) على قبور أجداده دليلاً على إستمرارهم في محاربتهم للعدوّ حتى الإستشهاد.

و أمّا مفدي زكريا، بإعتباره شاعراً فكرّس حياته الأدبية لتحرير وطنه من السيطرة الإستعمارية، فهو يدعو أمّته إلى المقاومة و تحريرها نفسها من هذه السيطرة. يعتبر الشاعر في قصيدته «الذبيح الصاعد»، الحياة تحت نير الإستعمار عاراً عظيماً و يدعو شعبه إلى عدم القبول بالسيطرة الإستعمارية. فهو يقول:

و إذا الشَّعـبُ داهَمَتهُ الرّزايا هَبَّ مُستَصرِخاً و عافَ الرُّكودا
و إذا الشَّعـبُ غَازِلَته الأمانِيّ هـــامَ في نيلِـــها يَدَك السُّدُودا
دَولَـــــةُ الظُّلمِ لِلزّوالِ، إذا ما أصبَحَ الحُـــرُّ لِلطّغـــامِ مُسوَدّا
ليسَ في الأرضِ سادةٌ و عَبيدٌ كيفَ نَـــرضَى بأن نَعيشَ عَبيدا

(زكريا؛ ٢٠٠٧: ٢٠)

يعتقد مفدي أنّ معظم الجزائريين مهتمّون بتحرير أنفسهم من الإستعمار و الدّفاع عن أرضهم، لأنّهم يرون أنّ الإستعمار يهدّد بقاء الجزائر. لذا، يرى أنّ إنتفاضة الشعب الجزائري ضدّ الإستعمار و نيل إستقلاله وشيكة؛ و لذلك، يصوّر في قصيدة «و تكلّم الرّشاش جلّ جلاله!!» إستعداد الشعب للتحرّر من الإستعمار:

إنّ الجزائرَ لم تَنَم عن ثأرها أو تَنسَها ألَمَ المُصابَ الأعصُرُ

في كلِّ حيٍّ بالجزائر، صُورةٌ و بكلِّ شِبرٍ في الجزائر، مَنظَرُ
و بكلِّ خافقةٍ، رهيبٌ خيالُها و بكلِّ زوايةٍ، حديثٌ ينشرُ
و هي وصمةُ التاريخ في أطوائها للعامليـن، عن (التمدن) مظهرُ

(م.ن: ١١٦-١١٧)

لا يطيقُ توفيق زيّاد أدنى ذلٍّ، و رغبتُه في إنقاذ الوطن من أيدي الغاصبين الصهاينة. يُنادي بكلِّ ما أوتي من قوّة، بحريّة فلسطين و القدس، و يدعو الشعب إلى التحرّر من الإستعمار. يقول فى ديوانه:

«في كلِّ مكان/ و عَلَى كُلِّ مَكَان/ في القدس العربية/ في غَزَّة و الجولان/ وطني – مُحتلّاً كان/ وطني – أَصْبَحَ حُرّاً/ و الْمُحْتَلُّ الْغاصِبُ كَان/ و الْيَوْمَ، تَحوّلَ.. ذِكرَى...» (زيّاد؛ ١٩٧٠: ٤٨٦-٤٨٧)

يشير الشاعر إشتياقه لوطنه فلسطين، كأنّه يهتف لا وطن محتلٌّ إلا وطنى المسلوب و إنّما الوطن المحتلّ هى فلسطين. ثم يستمرّ القول ها هو وطنى الذى سيكون حرّاً فيبشّر كلّ الشعب الفلسطينى بالحريّة يستتب الأمن و السلام، ثم ينتهى بقوله: صحيح أنّها محتلّة غاصبة، لكنّها تتحوّل ذكرياتها الجريحة اليوم، حتّى يصمدوا أمام أقسى المعاناة و يظفروا عليها.

يقول إبراهيم طبشي في مقاله أنّ مفدي يعتقد فيما يتعلق بجهود الشعب للحصول على إستقلال الجزائر: «أنّ الجزائريين قد ضحّوا بأرواحهم من أجل الإستقلال، و أنّه لا يمكنهم أن يفرّطوا في هذا الحقّ.» (طبشي؛ ٢٠١٤: ٤٣) يعتبر مفدي الإستعمار الفرنسي سبباً في فقدان الجزائر إستقلالها. و يقول الشاعر للقادة الإستعماريين أنّ الشعب قد سئم من السيطرة الفرنسية، و أنّ على فرنسا أن تعلم أنّ زمن الإستبداد قد ولّى. يريد الشعب إستقلال وطنهم بأيديهم. يعلن الشاعر أنّه رغم معارضة الحكومة الفرنسية، فإنّ إستقلال البلد قريب. يصوّر في قصيدة «ذروا الأحلام و اطرحوا الأمانى» إنجاز الشعب للإستقلال و عودة الشرف و العزّة إلى الوطن، و يقول: أنّهم لن يرضوا بعوض عنه و لو كان ذلك جنة الخلد نفسها:

نرى إستقلالنا عدلاً و حقاً فـرنسا لم تزل فيه تَمَارى

به فوق الجماجم قد صَعَدنا و في تحقيقه خُضْنا الغُمَارا
فلا نـــرضى به أبداً بديلا نعيمَ الخُلدِ لو نعطي الخيارا

(زكريا، ٢٠٠٧: ١٣٣)

كان توفيق زيّاد على دراية كاملة بتركيبة النظام الصهيوني، إذ كان رئيساً لبلدية الناصرة و عضواً في الكنيسيت الإسرائيلي. تقول سلمى الخضراء الجيوسي فى كتابها أنّه «شغل منصب رئاسة بلدية الناصرة حتى وفاته، كما كان عضواً في الكنيسيت الإسرائيلي لعدّة دورات إنتخابية عن الحزب الشيوعي الإسرائيلي راكاح.» (الجيوسى؛ ١٩٩٧: ٢٦٥/١) من خلال دراسة قصائد توفيق زيّاد، نستطيع أن نستنتج أنّه كان يعتبر الثورة من أهمّ طرق إنقاذ فلسطين. إنّ الغضب الثوري و التحدّي و النضال المباشر هي علامات واضحة للتحرّر من هيمنة النظام الصهيوني في قصائده. عندما يتحدّث توفيق عن الثورة، فإنّه يضع عينيه على العالم أجمع، و لا ينوي التوقّف حتى يسقط الإستعمار و يقضي على جذور الظلم، كما يقول فى قصيدة «أحبّ.. و لكن»:

«أحبُّ لو استطعتُ بلحظة/ أن أقلِّبَ الدّنياء لَكُم: رأساً على عقب/ و أقطَعَ دابرَ الطُّغيان/ أحرقُ كُلَّ مُغتَصِب/ .../ صموداً أيّها الناس الذين أحبُّهم/ صبراً على النُّوَبِ!!/ ضِعُوا بين العيونِ الشمس/ و الفولاذ في العَصب/ سواعدُكم تحقّقُ أجملَ الأحلام/ تصنعُ أعجبَ العَجَب.» (زياد؛ ١٩٧٠: ٩٩-١٠٠)

يمتاز توفيق زيّاد بروحه الثورية و بدراسة بعض أشعاره، نجد عبارات تُبرز نهجه الثوري في التحرّر من الإستعمار. و يقول فى قصيدة «من وراء القضبان»:

«عشرونَ كالغضبِ الملقّح/ نطفةُ البأسِ العنيد/ عشرونَ مِن شعب/ تحوَّل في الكفاحِ إلى جنود.» (م.ن: ١٠٤)

يشمئز الشاعر من العالم الذي إمتلأ بالظلم عليه، و لا يهدئه إلا التمرّد و الثورة، و لا يقبل أيّ سلم، و يتكلّم غاضباً و عنيداً فى الأبيات السابقة عن الحوادث الجريحة التى قضاها فى السجن و عن المعاناة التى قد ألّمت قلبه.

يقول فى المجموعة الشعرية «شيوعيون» فى قصيدة المسمّاة بـ «عن الرجال و الخنادق»:

«لم يَنتهِ الكفاح/ يا إخوتى.. لم يَنتهِ الكفاح.» (م.ن: ٥١)

يقول فى ديوانه:

«لا شيءَ... إلا غنوةٌ أطعمَتُها القلبَ الشجينا/ و بها تحدّيتُ العواصف، و الزلازل، و الجنونا/ فحروفُها نارٌ، و فولاذٌ تكبّر أن يلينا/ ضلّت أغانى الشعب، إن لم تحرق المستعمرينا.» (م.ن: ٧٠-٧١)

فقد شبّه الشاعر حروف الأغانى الشعب بنارٍ محرقة، لأنّ حروفها ثورة على المستعمرين و الشاعر يصمد أمام العدو الأيد بتلك الأغانى الشعبية، إنّ لجوء الشاعر الى الأغانى يعبّر عن شنّ إغارة فى الحرب، كأنّه يدافع عن وطنه بأغنيات ينشدها للشعب.

نلاحظ الروح الثورية فى أشعار مفدي زكريا أيضاً. ينصح الشاعر إبنه صلاح الدين في قصيدة «أى بنـيّ... هكذا، يفعل أبناء الجزائر» بالسعي إلى التحرّر من الإستعمار بروح ثورية، مع الثوّار:

هكـذا، يفعلُ أبناءُ الجـزائر ... يا صلاحَ الدين، في أرضِ الجزائر
سِرْ إلى الميدان، مأمونَ الخُطا ... و تطـوع، في صفوفِ الجيشِ ثائر
أنتَ جنـديّ بساحـاتِ الفدا ... و أنـا في ثـورةِ التحرير شاعر

(زكريا؛ ٢٠٠٧: ١٣)

يؤكّد مفدي أنّ الشعب الذي قام بالثورة و يخوض دروب النضال الشاقة و الصعبة التي رسمها له الغاصبون و المحتلّون، لا يطمح إلا إلى هدف واحد، و هو تحرير الجزائر من الإستعمار الفرنسي. و يصوّر الشاعر هذا الهدف للثوّار، في قصيدة «نشيد بربروس» و يقول:

يا ثورةَ التحرير صُونِي الحِمَى ... و حَرِّريه مِن يـدِ الغاصبين
شَقِّى الطـريقَ فوقَ سيلِ الدِّما ... و حَطِّهي، الطّاغينَ و الظالمين

(م.ن: ٧٨)

تقول برتمة رجاء: «صورة الثورة الجزائرية بملامحها البارزة، و حتّى في جزئياتها الدقيقة كلّها ترتسم في شعر مفدي واضحة جلية، و لعلّ هذا المعنى هو ما يذهب إليه «الطاهر جغادر» في قوله: «إنّ من لا يعرفه – أي مفدي– لا يعرف عن الثورة شيئاً...». فالثورة الجزائرية لم تقم على المستعمر لوجوده السياسي و العسكري و الإقتصادي فحسب، بل أيضاً لوجوده الفكري و الأدبي.» (رجاء؛ ٢٠١٥: ٢٣)

بناء على الهدف المذكور فإنّ الشاعر، من خلال ذكره و إستخدامه لكلمة الثورة صراحة في قصيدة «الذبيح الصاعد»، يعبّر عن هدف الثورة، و هو نشر مجدها و عظمتها في جميع أنحاء العالم، و محاربة الإستعمار بجدّيّة و التحرّر من عبوديته، و إثارة الخوف و الرعب في قلوب المعتدين:

وارو عن ثورةِ الجزائر، للأفـ ... ـلاكِ، و الكائناتِ، ذكراً مُجيدا
ثـــورةٌ، لم تكن لبغيٍ، و ظلمٍ ... فـــي بلادٍ، ثارَت تفكُّ القُيودا
ثـــــورةٌ، تملأ العوالمَ رعباً ... و جهادٌ، يذرو الطغاةَ حصيدا

(زكريا؛ ٢٠٠٧: ١٩)

ينتقد زكريا الإستعمار الفرنسي لخلقه جوّاً من الإستبداد بين الشعب الجزائري، و يُذكّر المستعمرين الفرنسيين بأنّ قيمة الإستقلال لدى الشعب هي أنّه إن لم يتحقق، سيُفضّل الموت و لن يرضى إلا بشرف الوطن و عزّته. و هكذا يصوّر الروح الثوريّة في الأبيات التالية من قصيدة «ماذا تخبئة يا عام ستينا؟»:

يا فـــــرنسا... كَفَى جَهلاً فإنّ لنا — شعباً يَـــرَى المَوتَ في إستقلالِه دينا
لا سِلمَ في الأرضِ مادامَت قَضِيَّتُنا — لم تَلقَ فـــي الأرضِ بالقِسطِ مَوازينا
ثُرنا على الظّلم، لا نَلوِي على أحدٍ — لا شيءَ في الكَونِ، دونَ العِزِّ يُرضينا

(م.ن: ١٣٠)

يسعى توفيق زيّاد و مفدي زكريا في بعض قصائدهما إلى تحقيق السلام و العدالة في المجتمع، و يحاولان توعية الناس بمؤامرات الإستعمار.

يقول توفيق فى قصيدة من ديوان «أنا من هذى المدينة»:

«ألم يَحِنِ الوقتُ/ أن نتجاوز دائرةَ الدم و النَّارِ/ أن يَجْنَحَ الْعَقلُ و القَلْبُ/ نَحوَ السلام/ و نحوَ الحقيقة/ ألم يحن الوقت/ أن يَفهمَ الوزراءُ/ و أن يفهمَ العقلاءُ و أن يفهمَ الأوصياءُ/ و كُلُّ الَّذينَ يَهُمُّهُمُ الأمرُ/ أنّ حدودَ السّلام/ تَقومُ على العدل.» (زياد؛ ١٩٩٤: ٥٠)

يهدف الشاعر في الأبيات السابقة، إلى إتّخاذ خطوة مؤثرة لتحقيق شعار السلام و العدالة، و يدعو الكيان الصهيوني إلى الإلتزام بالقضايا الإنسانية و عدم إرتكاب المزيد من الظلم و الطغيان ضدّ الشعب الفلسطيني.

يعتبر زكريا أنّ إدّعاءاتِ الحكومة الفرنسية بأنّها رائدة في مجال السلام و العدالة، كاذبةٌ و يعتقد أنّ قادة هذه الحكومة لا يكترثون للشعب الجزائرى. يقول الشاعر فى قصيدة «و تعطلت لغة الكلام»:

وضعت فرنسا في النّذالة بِدعةً — لم تُروِها الأعصار، و هي ظلام
يـــــا لعنةَ الأجيال أنت شَهادةٌ — إنَّ التّمـــــــدنَ للشـــرور لِثام
و العدلُ زَورٌ، و السّلامُ خرافةٌ — لغـــةٌ، تُحَلّلُ باسمِـــــها الآثام

(زكريا؛ ٢٠٠٧: ٤٣-٤٤)

يعتبر الشاعر في الأبيات السابقة، إدّعاء فرنسا بتحقيق السلام و العدالة للشعب الجزائري إدّعاءً سخيفاً، حيث تواصل خلف الكواليس أعمالها الإجرامية في الجزائر و غيرها من المستعمرات الأفريقية. يحاول مفدي كشف الخداع الفرنسي تحت شعار السلام و العدالة لشعبه و يحذّرهم من الإنخداع بالحيل الإستعمارية للإنسحاب من النضال من أجل حريّة البلد و إستقلاله.

إذا نظرنا إلى الأبيات التي ذكرناها من قصائد توفيق زيّاد و مفدي زكريا في هذا القسم، نجد أنّ قصائد الشاعرين تتمتّع بخاصيّة الروح الثوريّة الملتزمة. إنّهما لا يطيقان وجود الإستعمار في بلدهما، و يدعوان الشعب بصوتيهما الثوريين الملتزمين، إلى محاربته و الوقوف في وجهه. يندّد الشاعران بالإستعمار مؤكّدَين أنّه سلب من الشعب كلّ شيء. يرفض الشاعران السّلم مع الإستعمار و يغنّيان قصائد ثورية ملتزمة ضدّ المستعمر الدخيل و هما في السجن. يعتبر هذان الشاعران إدّعاء الإستعمار بالسلام و العدالة إدّعاءً زائفاً و كاذباً، و يقومان بتوعية الناس لمؤامرات الإستعمار الصهيوني و الفرنسي. يعتقد زيّاد و زكريا أنّ مواجهة الإستعمار تتطلّب صموداً و صبراً في سبيل الوطن، و يعتبران أمّتهما أمّة عظيمة و قويّة في محاربة الإستعمار الذي سيقضي عليه في نهاية المطاف.

٢-٤. ذكر جرائم المحتلين و إدانة أفعالهم اللاإنسانية

لم يصمت توفيق زيّاد و مفدي زكريا، بإعتبارهما من أبرز شعراء المقاومة الفلسطينية و الجزائرية، أمام الممارسات اللاإنسانية و القمعية للمستعمرين، و من خلال تصوير الأوضاع السياسية و الإجتماعية البائسة في بلدهما، كشفا عن جرائم المستعمر الدخيل.

نذكر فيما يتعلق بجرائم الكيان الصهيوني ضدّ الشعب الفلسطيني، حوادث مثل مجزرة كفر قاسم، حرب حزيران ١٩٦٧م، يوم الأرض في قصائد توفيق، و نشير فيما يتعلق بجرائم فرنسا ضدّ الشعب الجزائري، حوادث مثل التفجير النووي الفرنسي بالجزائر، مجازر ٨ ماى ١٩٤٥م، هجوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٥م فى سَكِيكَدَة، في قصائد مفدي.

١-٢-٤. توفيق زيّاد

-مجزرة كفر قاسم

كفر قاسم هي القرية التي قتل سكانها على يد جنود الكيان الصهيوني في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦. «تقع كفر قاسم في أقصى جنوب المثلث على بعد نحو (٢٣) كم للجنوب من طولكرم و هي آخر أعمالها من الجنوب، ... و تقع على الخطوط التي تفصل بين ما يسمّى بدولة إسرائيل و الضفة الغربية التي كانت تقع تحت السيطرة الأردنية، و قد سُلّمت لإسرائيل مع بقية قرى المثلث بحكم (اتفاقية الهدنة في رودس)، التي أبرمت بين الأردن و الكيان الصهيوني، و تقضي بتجزئة فلسطين بين الطرفين، بعد أن وضعت حرب ١٩٤٨م أوزارها. و لكن أهالي هذه القرى – كغيرهم من الشعوب المستضعفة – لم يستشاروا في تقرير مصيرهم بل أصبحوا ريشة في مهب الريح تتقاذفهم الأمواج لتحط بهم في مصلحة القوة المسيطرة المهيمنة. و منذ ذلك اليوم بدأت المعاناة اليومية لأهالي هذه القرى، من مصادرة الأراضي و السجن و القتل و تقييد الحريات ... و بلغت

المعاناة ذروتها في تمام الساعة الخامسة من مساء يوم الاثنين ١٩٥٦/١٠/٢٩م حين حصدت أيدي الغدر (تسعة و أربعين) شهيداً و شهيدة من أبناء كفر قاسم العائدين من العمل، يحدوهم الأمل و الشوق لرؤية أسرهم، و أخذ قسط من الراحة بعد يوم شاق في قطف الزيتون، أو قطع الحجارة من المحاجر، أو رعي الأغنام، و كانوا قد فرضوا حظر التجول على القرية – في هذا اليوم – فجأة قبل الموعد المعتاد بأربع ساعات.» (صالح؛ ٢٠٠٥: ٢١)

يقول خالد على مصطفى فى كتابه: «ترجع أهمية قصيدة توفيق «كفر قاسم» إلى أنّ الشاعر يعلن فيها عن هدف واضح لا لبس فيه و لا غموض، هو أنّ العرب لا حياة لهم إلا بالإتّحاد.» (مصطفى؛ ١٩٧٨: ٢٦٢)

يقدّم توفيق زيّاد في قصيدته «كفر قاسم» صورة عن المأساة الأليمة لقرية كفر قاسم، و يقول:

«ألا هل أتاك حديثُ الملاحم/ و ذبحُ الأناسي ذبحُ البهائم/ و قصّةُ شعب تسمى:/ حصادَ الجماجم/ و مسرحُها .../ قريةٌ../ إسمُها: كفر قاسم..؟؟/ حديثٌ أفاقَ عليه الجميع/ فظنّوه أضغاثُ حُلمٍ مريع.» (زياد؛ ١٩٧٠: ٣٠٦-٣٠٧)

تبدو صفة الحقد و القسوة و الظلم متكرّرة فى وصف القتلة، تظهر فى معاملتهم للضّحايا، و طريقة قتلهم لهم، فقد ذبحوهم على قارعة الطريق ذبح البهائم، و ألقوا الجثث فوق بعضها، فى جريمة تخرج عن حدّ التصديق فيظنّ الإنسان ذلك أضغاث أحلام، و هو ما أكّده توفيق زيّاد فى الأبيات السابقة.

يقول توفيق فى مقطع من هذه القصيدة:

«و مدّ الرّدى للضحّايا ذراعا/ ليقصفَ خمسينَ روحاً تباعاً/ لتسقطَ فوقَ الثّرى الأسمر/ لتسقيه خمرَ الدّم الأحمر.» (م.ن: ٣١٦)

قدّم الشاعر لنا دماء الشهداء فى صورة جميلة محببة إلى النفس على الرغم من الوضع المؤلم الذى قضى فيه الشهداء.

يقول فى مقطع أخرى:

«لها الويلُ رجعيةٌ تستبدّ/ تحكمُ سيفُ الرّدى فى الرّقاب/ و تدفنُ أحلامُنا فى التّراب، و تجبله بالدماء الرّطاب/ و تفرضُ فى أرضِنا بالحراب/ شريعةٌ/غابٌ/ و ظفرٌ/ و ناب.» (م.ن: ٣١٩-٣٢٠)

يتساءل توفيق زيّاد عن الحضارة التى يدّعيها الجزّارون، كيف تكون حضارة و هى تقوم على قوّة السلاح و سفك الدماء و إستلاب الخيرات، و دفن أحلام الآخرين، و تفرض بديلاً منها الخراب

و الدّمار، إن هى إلا شريعةُ الغاب يؤمن بها الصهاينة و يطبقونها على الشعوب المستضعفة، و أوّل هذه الشعوب الشعب الفلسطينى.

ثم يدعو أهلها إلى الوحدة و الحريّة و التّضحية في سبيل وطنهم:

«أخي/ إنّ في الأفق صوتاً يَمور/ هتافُ الضّحايا يَشُقُّ القبور/ هتافٌ يهزّ الفضاء الكبير:/ هو الشعب يُذبحه المجرمون/ ألا إتَّحدوا أيُّها الكادحون/ ألا اتَّحدوا أيُّها المخلصون/ و ضَمُّوا الصفوفَ و شَدُّوا العزائم/ لِمَحوِ نظامٍ على الظلم قائم/ نظامُ... الخَنا و الدِّما و الجرائم/ لنرجع حقّاً أبى أن يبيد.../ سنرجعُه/ ... سنرجعُه رغم أنفِ اللّظى و الحديد/ و نجعلُه جنّةً مِن جديد.» (م.ن: ٣٢٤-٣٢٥)

لا يلجأ الشاعر في هذه الابيات إلى البكاء و الرثاء؛ لأنّه يؤمن بيقين النصر و يعتقد أنّه بتوحيد القوى المظلومة فإنّ النظام الصهيوني الذي بني على الظلم و سفك الدماء سوف يدمّر حتماً.

-حرب حزيران ١٩٦٧

صباح يوم الإثنين في ١٩٦٧/٦/٥م شنّ الطيران الإسرائيلي هجوماً صاعقاً على المطارات المصرية و الأردنية و السورية و اللبنانية و دمّرت مدرّجات المطارات و دمّرت الطائرات العربية على المدرّجات في فترة ثلاث ساعات. و إستطاعت إسرائيل بهذه المباغتة من تحقيق النصر و في غضون ستة أيّام هزمت إسرائيل الجيوش العربية و إحتلّت الضفّة الغربية و قطاع غزة و سيناء و مرتفعات الجولان السورية، و بذلك سيطرت على أراضٍ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة إسرائيل، و أستشهد ١٥ ألف عربي و لجأ ربع مليون فلسطيني من الضفّة الغربية و قطاع غزة إلى الأردن و سوريا و لبنان، و جلا ١٥٠ ألف سوري عن القنيطرة و مرتفعات الجولان إلى دمشق. و بعد إنتهاء الحرب حاول عدد من العرب العودة إلى ديارهم عن طريق عبور نهر الأردن، و لكنّ الجنود اليهود كانوا يطلقون النار عليهم و صرّح جندي يهودي كان قد إشترك في هذه العمليات قائلاً: «في كلّ ليلة يعبُر العرب نهر الأردن من الشرق الى الغرب، قُمنا بسدّ المعابر و أمرنا بإطلاق النار و القتل دون سابق إنذار ... و بعد قتلهم كنّا نغطّيهم بالتراب و أحياناً نتركهم حتى يأتي التراكتور لدفنهم.» (السعدى؛ ١٩٨٥: ٢٣٣)

لقد إزدادت موجة الشعور القومي العربي بين عرب إسرائيل منذ حرب الأيّام الستة، و قد ساهمت سياسة الإتصال الحرّ مع الضفة الغربية و سياسة الجسور المفتوحة بتجديد الإتصال بين عرب الضفّة الغربية و فلسطيني شرقي الأردن و بين عرب إسرائيل، الأمر الذي خلق أرضية لشعورهم بالفخر، و إلى إستخدامهم شعارات نضالية في إسرائيل.

كانت الجرائم التي إرتكبها العدو الصهيوني بحقّ الشعب الفلسطيني المظلوم عام ١٩٦٧ جسيمة لدرجة أنّها وجّهت ضربة موجعة لمعنوياته. لذلك، بادر معظم شعراء المقاومة إلى إنشاد الشعر لتخفيف معاناة هذا الشعب المظلوم، معبّرين عن هذه الجرائم البشعة و إذلال المحتلّين. يقع توفيق زيّاد على رأس شعراء المقاومة في فلسطين المحتلة، الذين طبقت شهرتهم آفاق الإنسانية بما جسّدوه من الإلتزام الواعي بقيمة الكلمة في معركة النضال في وطنهم، و بإدراك مسؤوليتهم من دون أي إستخفاف أو إستهانة تشوب قدسية دورهم، أو يهزّون أثر فعلهم في تشجيع الأمل و الحثّ على المقاومة، و التشوّق إلى تحقيق الآمال الوطنية. بهذا الإلتزام القائم على الوعي العميق و المسؤول تجاه القضية، تكوّنت لدى توفيق زيّاد و لأعوام كثيرة رؤية ثورية صافية و ثابتة لأبعاد معركته و رسالته، و لم يكن ممكناً أن تهتزّ بتأثير أي طارئ مهما يكن ثقيلاً، و هو الذي يقول في مواجهة هزيمة حزيران ١٩٦٧، و ما آلت إليه فى قصيدة «كلمات عن العدوان»:

«مِن هنا مَرُّوا إلى الشّرق غَماماً أسودا/ يقتلون الزَّهرَ و الاطفال و القَمحَ و حَبّات الندى/ و يَبيضون عَداوات و حقداً و قبوراً.» (زيّاد؛ ١٩٧٠: ٤٤١)

يستخدم الشاعر (غماماً أسودا) رمزاً للعدو الصهيوني الذي عبر سماء فلسطين في ٥ حزيران ١٩٦٧ متّجهاً نحو الشرق، و يشير إلى الجرائم التي إرتكبوها خلال مرورهم، مثل تدمير الزهور و القمح و حبّات الندى و قتل الأطفال، و نشر الموت و الحقد و العداء.

يواصل القصيدة مخاطباً العدو و تحدّيه بالسؤال: ما هي الجرائم التي أعددتموها لأمّتنا في المستقبل؟ يشير إلى حرمان شعبه من حقوقه الطبيعية و هي حيازة الأرض و السلام و الأمن، و يحمل العدو مسؤولية جرائمه في حقّ أبناء وطنه و سفك دماءهم، معبّراً بذلك عن إحتجاجه على الظروف التي يفرضها العدو عليه. هو في الحقيقة يشير إلى أنّ عدوّهم بإطفاء نور الأمل من قلوبهم و سرقة أفكارهم و آرائهم، حرمهم من أبسط حقوقهم الطبيعية، و هذا في حدّ ذاته يعتبر جريمة في حقّهم:

«ما الذي خَبَّأتُموه لغد؟!/ يا مَن سَفَكتُم لي دمى/ و أخذتُم ضوءَ عينى و صلبتُم قلمى.../ و اغتصبتم حقَّ شعبٍ آمنٍ لم يُجرم.» (م.ن: ٤٤٣-٤٤٤)

بتكرار هذا السؤال (ما الذي خَبَّأتُموه لغد؟!)، يصف جرائم أخرى إرتكبها العدو بحقّ الشعب الفلسطيني المظلوم؛ جرائم مثل إهانة علم هذا البلد، و مضاعفة جراح و آلام شعبه، و رفض أحلامه:

«ما الذي خبَّأتموه لغد؟!/ يا مَن أهنتُم عَلَمِى/ و فتحتم في جراحاتى جراحاً/ و طعنتم حُلُمِى.» (م.ن: ٤٤٤)

يدين الشاعر في المقاطع الأخيرة من هذه القصيدة الأفعال و السلوكيات اللاإنسانية للمحتلين من خلال مقارنة القيم النبيلة لأمّته مع الأفعال اللاإنسانية للعدوّ الصهيوني ضدّ الأمة العربية في فلسطين:

«إننا للمَرَّة الألف نَقولُ:/ نحن لا نأكل لحمَ الآخرين/ نحن لا نَذبحُ أطفالاً/ و لا نَصرعُ ناساً آمنين/ نحن لا نَنهبُ بيتاً أو جَنى حقلٍ/ و لا نطفى العيون/ نحن لا نَسرُقُ آثاراً قديمة/ نحن لا نعرف ما طعم الجريمة/ نحن لا نَحرقُ اسفاراً و لا نكسرُ اقلاماً/ و لا نَبتزُّ ضعفَ الآخرين/ فارفعوا أيديكم عن شعبنا/ يا أيها الصّمُّ الذين/ ملأوا آذانهم قُطناً و طين.» (م.ن: ٤٤٧-٤٤٨)

من خلال إنكاره للأعمال اللاإنسانية التي ارتكبها العدوّ ضدّ شعبه، يذكرنا زيّاد بالجرائم التي إرتكبها العدوّ الغاصب بحقّ الشعب المظلوم في هذه الأرض في هزيمة عام ١٩٦٧. و من خلال قمع المحتلّين، يطلب منهم نزع القطن من آذانهم لسماع الحقيقة و التوقّف عن أعمالهم الشنيعة.

يقول الشاعر في المجموعة الشعرية «أدفنوا أمواتكم و انهضوا»:

«يا تراباً كلُّه تبرٌ/ و ياقوتٌ، و عاجْ/ حبُّنا أقوى من الحب، و أغنى/ فادفنوا أمواتكم و انتصبوا/ فغدٌ - لو طار-/ لن يفلت منّا/ نحنُ.. ما ضِعنا.. و لكن/ مِن../ جديد../ قد../ سُبكْنا.» (م.ن: ٢١٨-٢١)

عبّر في هذه القصيدة عن مرارة هزيمة سنة ١٩٦٧ و الوجع العربي الكبير، إلا أنّه أثبت قوة و ثبات الفلسطينيين، و صوّر شعباً مناضلاً يريد البقاء لا الفناء، و أنّه أكّد ضرورة النهوض و المقاومة و عدم الركون إلى الراحة، فالقضية تقتضي وجود رجال شجعان يفدونها بأرواحهم نصرة لها.

-يوم الأرض

يقول مقبل عبدالقادر محمود عزموطى فى رسالته عن أحداث يوم الأرض: «شارك الفلسطينيون الذين بقوا في الأراضي الفلسطينية المحتلّة عام ١٩٤٨ بدعم عمليات المقاومة الفلسطينية، رغم القمع الشديد من قبل سلطات الإحتلال الاسرائيلي و إخضاعهم للحكم العسكري، كما قاموا بعدد من الهبات و الإنتفاضات رفضاً للإجراءات الصهيونية و مصادرتها لأراضيهم، و من أبرز هذه الإنتفاضات في فترة السبعينات ما عرف بأحداث يوم الأرض، الذي جاء نتيجة تراكمات رفض مصادرة أراضي الفلسطينيين من قبل السلطات الاسرائيلية منذ العام ١٩٤٨، و تعود أحداث يوم الأرض إلى العام ١٩٧٥، عندما أعلنت المؤسسة الاسرائيلية، عن خطة لتهويد الجليل و إقامة عدة مدن يهودية في المنطقة على أرض بملكية المواطنين العرب كما صادقت في ٢٩ شباط

١٩٧٦ على مصادرة ٢١ ألف دونم في الجليل بما فيها أراضي منطقة المل، و التي تعود ملكيتها لفلاحين من قرى سخنين و عرابة و دير حنا و عرب السواعد، و كانت في حينه منطقة المل جزءاً من المنطقة العسكرية المغلقة التي أطلق عليها منطقة ١٩، و كان دخول المزارعين و أصحاب الأراضي إليها منوطاً بتصريح من الحاكم العسكري يتمّ تجديده كلّ ثلاثة أشهر، و كردّ فعلٍ على قرار المصادرة قررت القيادات السياسية الفلسطينية الإضراب ليوم واحد في ١٩٧٦/٣/٣٠و إنطلقت المظاهرات في مساء ١٩٧٦/٣/٢٩ فهاجمتها القوات الإسرائيلية بعنف و حاولت قمع المظاهرات و كسر الإضراب بعد أن فرضت الحكومة الإسرائيلية منع حظر التجول في المنطقة، و إقتحم الجنود قرية دير حنا و قمعوا المظاهرة بالقوة، و أصيب و قتل العشرات هناك، و في اليوم التالي قمعت القوات الصهيونية كلّ المظاهرات التي إنطلقت في عدد من المدن و القرى الفلسطينية و كان نتيجة ذلك إستشهاد ستة فلسطينيين و جرح و إعتقال العشرات.» (عزموطى؛ ٢٠١٩: ١١٧-١١٨)

كان توفيق زيّاد شاعراً سياسياً، أفكاره السياسية جليّة و جديرة بالتأمّل في قصائده. إختار الشعر وسيلة لتحقيق أهدافه السياسية بالدرجة الأولى، و غايته الأسمى تحرير الشعب الفلسطيني. لم ينفصل شعره و حياته عن القضايا السياسية. نلاحظ فى الأبيات التالية من قصيدة «أنا من هذى المدينة» أنّه يتحدّث عن «يوم الأرض» و أحداثه المريرة و غضب الشعب و ثورته ضدّ النظام الصهيوني، فيقول:

«أنا من شارع يومِ الأرض من دُوارِ/ أيّار/ و مِن ساحاتِ صبرا و شتيلا/ و الزِّقاقاتِ التي لا تجرؤ/ الشرطة/ أن تدخلَها عندما يشتعلُ الناسُ/ غضبْ.» (زيّاد؛ ١٩٩٤: ٢٩)

يتحدث زيّاد في قصيدة «هنا باقون»، عن أحداث يوم الأرض و عبّر فيها عن محبّته لها، و ضرورة التمسّك بها. فهو يقول:

«كأنّنا عشرونَ مُستحيل/ في اللّد، و الرَّمْلَةِ، و الْجَليل/ هنا.. على صُدُورُكُم، باقُونَ كَالجدار/ و في حُلُوقَكُم كَقَطْعَةُ الزُّجَاجِ، كَالصّبّارِ/ و في عيونهم/ زُوبَعَةً مِنْ نَارٍ/ هنا.. على صُدُورِكُم، باقون كَالْجِدارِ.» (زيّاد؛ ١٩٧٠: ١٩٧)

من خلال إستخدام ضمير الجمع يبدو أنّ الشاعر يؤكّد على الهوية الجماعية، و كأنّه يعتقد أنّ أفضل طريق لتحقيق الوحدة الوطنية في ظلّ هوية مشتركة، هو تشكيل صفوف مترابطة من الشعب، تنظيم مظاهرات واسعة النطاق، و الوقوف ضدّ النظام المحتل. من الجدير بالذكر أنّ عبارة (كأنّنا عشرونَ مُستحيل) الإشارة إلى قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ...) (الأنفال/٦٥) و يستشهد الشاعر بهذه الآية

لتشجيع إخوانه الفلسطينيين على جهاد العدوّ. و يرى فيهم مثالاً للعشرين الصابرين المذكورين في القرآن، الذين سينتصرون في النهاية على كثرة العدوّ رغم قلّة عددهم.

نلاحظ فى نفس القصيدة أنّ الشاعر يرى أحزان أبناء وطنه و مصائبهم و كذلك تحمّل هذه المصائب و الضغوط و لهذا يدعو الناس الى الثورة:

«هنا.. على صُدُورُكُم، باقُونَ كَالجدار/ نجوع... نَعرى... نتحدَّى.../ نُنشِدُ الأشعار.../ و نملأ الشوارع الغِضاب بالمظاهرات/ و نَمْلأُ السُّجُون كبرياء/ و نصْنَعُ الأطفال... جيلاً ثائراً... وراءَ جيل.» (م.ن: ١٩٩)

نرى فى هذه الأبيات، إهتمام زياد بقضيّة الشعب الفلسطينى فهو من الشعراء الذين رفعوا راية الشعر المقاوم فى الأرض المحتلة و قاموا بتشييد إسم فلسطين فى العالم و أعلنوا التحرّر من السيطرة الإستعمارية. إنّ تكرار عبارة (هنا.. على صُدُورُكُم، باقُونَ كَالجدار) فى الأبيات السابقة يشير إلى هموم و معاناة الفلسطينيين في الداخل المحتلّ، دون تردّد لحظة عن تأدية واجبهم تجاه وطنهم.

٢-٢-٤. مفدي زكريا

-التفجير النووي الفرنسي بالجزائر

أنشد مفدي زكريا قصيدة «وليد القنبلة الذرية» بمناسبة تفجير فرنسا لقنبلتها الذرية بصحراء الجزائر صبيحة يوم السبت ١٣ فيفرى ١٩٦٠م. يشير الشاعر إلى إستخدام القنابل الذرية من قِبَل المستعمر الفرنسي، و يصوّر فيها الآثار المدمّرة لهذا العمل الهَمَجي على الشعب الجزائري و يعرب عن إستغرابه من هذا العمل الذي قام به المحتلّون. يقول فيها:

ما دهاه..؟ ويلَ أمّه.. ما دهاه؟؟ ... ويلتـــــاه، مِن جيله ويلتاه!!
ما لـــه في الحياة، يولَد أعمى؟ ... لم تَرَ الكونَ، باسماً مُقلتاه؟
ما له أخرساً، تناجيه في المهـ ... ـد، و لـم تبتسم لها، شفتاه؟
و لمـــاذا لم يبكِ، بينَ ذراعيـ ... ـها دلالاً،...و لم يقُل: دماه؟
أ لهـــذا الوجود، جاء وحيداً؟ ... أم لـــــه في زمانِه أشباه؟
ويلتـــــــاه من جيله ويلتاه!

(زكريا؛ ٢٠٠٧: ١٣٩)

ثم يتحدث الشاعر عن الأعمال الوحشية التي قام بها الفرنسيون، مشيراً إلى تضحية الأطفال و الأشخاص العزل بهذه القنابل الذرية و الآثار المدمّرة الدائمة لهذه القنابل على البيئة الجزائرية. فهو يقول:

قذفَتـــــه إلى الحياة، يدُ المو ... ت، فلـم يقضِ في الحياة ربيعا
و سقَتْه السّمومُ، في عالمِ الغيـ ... ـب، فرنسا... فجاءَ شكلاً مريعا

ابــنُ إفريقيا الشهيد، و قد خـ ـرَّ علـى مذبحِ الطُّغاة صريعا
تخــذت منه (للتجارب) قربا نا، فرنــسا، فحطّمته رضيعا
شوّهــت خلقَه، جريمتُها الكبـ ـرى: و جرّته للخرابِ سريعا
ليتَه ظــلّ في الفضاء بخارا!! ليتَــــه دامَ كالشعاعِ، رفيعا!
ليتَه ظلّ في السماء، منيعا

(م.ن)

في نهاية القصيدة، يصوّر الشاعر الآثار المدمّرة لهذه القنابل الذرية على الأجيال القادمة، فيخاطب الشعب الأفريقي قائلاً: ستستمع الدنيا لكلماتكم يوماً ما، و سيروي الزمن هذه الأحداث للأجيال القادمة. ثم دعا الشعب الأفريقي للإنتقام لهذا العمل الوحشي للمحتلين الفرنسيين:

شعــــب إفريقيا، أحاط به المكـ ـر فأمسى للمجــــرمين، ضحية
و رمــــته عبر القرون، فرنسا طعمــــة للقنــــابل الــــذرية
و ســرى الموت فيه، جيلا فجيلا يــــــوم هزّت شعوبة الحيوية
شعــــب افريقيا، ستنصفك الـ ـدنيا، و تصغِي لك الشعوب الأبية
و سيحكِي هذا الزمان، و يــروى للبــــــرايا، فضائع، المدنية
فخــــذ الثأر مــن فرنسا، و خلد في الضحايا تلك النفــوس الزكية
و انفجر صارخاً... و قُل: يا فرنسا أنــت في الأرض، هفــوة أزلية
يا فرنسا... يا لعنة البشرية!!

(م.ن: ١٤١)

– مجازر ٨ ماى ١٩٤٥م

قد جاء فى كتاب «تاريخ الجزائر المعاصر من ١٨٣٠ إلى ١٩٨٩» عن مجازر ٨ ماى ١٩٤٥: «إرتبطت هذه المجازر بتطوّر الحركة الوطنية و إنتشار الوعي الوطني لدى غالبية الجزائريين، و بدا للسلطات الفرنسية وجوب قمع هذه الحركة و إلتقت أهداف الإدارة الفرنسية مع مطامع المستوطنين الأكثر تطرّفاً، لبحث التواطؤ الضمني المسؤول عن هذه الحوادث و كانت أطراف الحركة الوطنية واعية بما كان يدبّر لها و إجتهدت في تفويت الفرصة على المستعمر، لكنّ الجماهير الشعبية كان إستيائها من المستعمر عظيماً، و إستعدادها للتضحية كبيراً، إغتنمت الحركة الوطنية فرصة الإحتفال بالعيد العالمي للشغل و كذا الإحتفال بيوم الهدنة و إنتصار الحلفاء على ألمانيا لتنظيم مظاهرات سلمية تندّد فيها بالقمع الإستعماري و تؤكّد للعالم طموحاتها الإستقلالية. لكن الجروح التي خلفتها هذه المأساة كانت عميقة، و إنعكاساتها كانت وخيمة على المستعمرين، فقد تأكّد أنّ العمل المسلّح وحده هو الكفيل بتحقيق مطامع الجزائريين و إزداد إلتفاف الجماهير حول التيار الثوري. في ظلّ فرحة البشرية بإنتهاء الحرب العالمية الثانية خرج الجزائريون يوم ٨ ماي ١٩٤٥ للإحتفال بإنتهاء الحرب و المناداة بالحرية و الإستقلال للجزائر،

و إطلاق سراح المعتقلين حاملين العلم الوطني في عدة مدن أهمها: سطيف، قالمة، خراطة، جيجل، عنابة، القل، البليدة، تيزي وزو، بسكرة، باتنة، خنشلة، مستغانم، تلمسان، سيدي بلعباس، البرواقية، بوسعادة.» (بلاح و الآخرون؛ ٢٠٠٦: ١/٤٥٥-٤٥٦)

غير أنّ سلطات الإحتلال الإستيطاني الفرنسي التي وصلت إلى درجة القناعة الراسخة بأنّ الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا، قد أخلفت وعدها للجزائريين بعد مشاركتهم في الحرب العالمية الثانية إلى جانب الجيش الفرنسي مقابل الحصول على الحرية و الإستقلال.

حيث ردّت فرنسا بجيوشها الثلاثة البرية و البحرية و الجوية و ميليشيا المستوطنين و الشرطة و الدرك لإقتراف مجزرة رهيبة دامت إلى أوائل جوان، راح ضحيّتها ما بين ٤٥ إلى ١٠٠ ألف جزائري معظمهم في جهات سطيف و قالمة و خراطة. (آجيورون؛ ١٩٨٢: ١٥٠) و تلتها أعمال نهب و تخريب و تدمير و قصف و إنتهاك حرمات المسلمين على أوسع نطاق.

بعد إندلاع الحرب العالمية الثانية، لم يكن هناك حدث يثير إهتمام الأدباء الجزائريين مثل ٨ ماي ١٩٤٥، لذلك لعب الشعر الجزائري دوراً هاماً في إعداد الشعب للثورة و إستعادة كرامته المفقودة، خاصّة بعد هذا الحدث الأليم.

لقد تحدّث النقاد و الدارسون الجزائريون – على وجه الخصوص – عن صدى هذه الأحداث (٨ ماى ١٩٤٥) في الأدب الجزائري و رأوا أنّ هناك نقصاً و صمتاً لدى أدباء الجزائر، و بخاصة في أثناء الأحداث. يقول عبدالله الركيبي: «و على الرغم من أن هذه المأساة قد هزّت كيان الشعب الجزائري، و أيقظته من غفلته، و هزّت العالم أجمع، على الرغم من ذلك، لم نجد قصائد كثيرة تشيد ببطولة الشعب الجزائري أو حتى تسجّل هذا الحدث البارز و لم أدر لماذا؟» (الركيبى؛ د.ت: ٣٣)

مفدي زكريا هو أحد الشعراء الذين أدركوا حبّ الوطن و النضال ضدّ الإستعمار بعاطفة قوية و روح مشتعلة. من المدهش أنّه في زمن الحادثة و حتى بعدها، خلال سنوات الثورة التحريرية، لم نجد في دواوين الشاعر الكثير من القصائد في مواجهة مأساة ٨ مايو ١٩٤٥؛ و يبدو أنّه أيضاً من أولئك الشعراء الذين لجأوا إلى الصّمت في زمن هذه الحادثة الأليمة. يقول صالح خرفى عن أبعاد حوادث ٨ ماي في الشعر الجزائري: «و أبعاد حوادث (ماي) في الشعر الجزائري أبعاد قاتمة و خانقة، فقد إنحبس الشعر في أهواله الرهيبة، و أصيب بذهول و وجوم و تلك هي الصدمة التلقائية.» (خرفى؛ ١٩٨٧: ٢١٢)

لكن من خلال بحثنا في أعمال مفدي الشعرية إكتشفنا أنّ الشاعر خصّص قصيدتين لحادثة ٨ ماي ١٩٤٥ في ديوانه «إلياذة الجزائر» الذي ألّفه بعد الإستقلال. يتحدّث في القصيدة الأولى

عن يوم مجزرة ٨ ماي ١٩٤٥ فى سطيف و قالمة، و هو يوم مشؤوم كانت له عواقب و مآسي كثيرة و لن يمحى من ذاكرة الشعب الجزائري. يرى الشاعر أنّ عمليات القتل الوحشية التي إرتكبها الجلادون الفرنسيون كـ «لستراد» و «آشياري» تعكس الحقيقة الوجودية للإستعمار. فهو يقول:

و لم نَنسَ في أربعينَ و خمس ... ضحـــايا المَذابح في يومِ نحس
طـــربنا مع الحلفاءِ إغتراراً ... و قُمـــنا نصفّق في غير عرس
و كـــانت مجازرُهم بسطيف ... و قـــالمة للشّعب، دقّاتُ جَرس
و هـــزّ لستراد شعباً تواني ... و أيقظ في العمق ميِّتَ حِسّ
و علمـــــنا آشياري ثنايا ... فبـــــدّد لون الدّمآ كلّ لَبس
و كانـــت تلاحق أقلامُنا ... سرابَ الضّياعِ فباءَت ببخس

(زكريا؛ ١٩٨٧: ٦٦)

يخاطب في القصيدة الثانية، حادثة ٨ ماي ١٩٤٥، و يصف الجنود الفرنسيين بأنهم جماعة من الأغبياء، الذين، كجيش اليهود الذي إحتلّ فلسطين، لا حياء لهم. لذلك، يطلب الشاعر من السماء أن تُنزل صواعقها على القوم الظلوم الحقود أى الفرنسيين:

فيا أربعين و خمساً أعيدي ... فضـــائحَ جُندٍ، غبيٍّ بليد
و آثامُ أحلاسِ جيشٍ عميلٍ ... عـــديم الحيآ، كضمير اليهود
و يا ذكرَياتِ الدّماءِ الغوالي ... أفيضي جلالَكِ ملء نشيدي
و يا لَعَـــناتِ السّماء انزلي ... صَواعقَ، فوقَ الظّلومِ الحقود

(م.ن: ٦٧)

– هجوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٥ فى سَكِيكَدَة

بلدة سكيكدة فى الشرق الجزائرى كانت مسرحاً لمجازر وحشية ضاربة من طرف جيش الإستعمار الفرنسى و ذلك يوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٥م أيام تظاهرت بلدان الجزائر تضامناً مع المغرب الشقيق فى ذكرى إختطاف الملك الراحل المنعم جلالة محمد الخامس. (زكريا؛ ١٩٨٧: ٧٢ بالهامش)

يصف مفدي زكريا هذه الحادثة في إحدى مقطوعات ديوان «إلياذة الجزائر»، و يسجّل كمؤرخ متمرّس، الجرائم الوحشية التي إرتكبها الإستعمار و يصوّر الأعمال الوحشية للمعتدين الحاقدين، و هي الحادثة التي تهزّ العالم على مرّ العصور:

سَكِيكَدَة الثـــائرينَ أعيـــدي ... علينا فضـــــائح باغٍ حقود
أغسطس عشـــرونَ.. لم ينسَها ... و يـــذكرها ألفُ ألفِ شهيد
و خمسٌ و خمسونَ في الذّكريات ... جلالٌ.. يُهَدهِدُ صَدرُ الوجود

(م.ن)

ثم يصف إستشهاد الناس في هذه الحادثة و يقول: إنّ ساحات المدينة تعجّ بعبير الضحايا الذين بدأوا رحلتهم نحو الخلود. يروى الضّحايا جرائم المحتلّين و المرتزقين للعالم. يبيّن الشاعر أنّ المحتلّين يدّعون الحضارة، و لكنّهم لا يفهمون شيئاً عن الإنسانية و هم أدنى من الحيوانات. فهو يقول:

و عِطرٌ للمَذابح في سَاحِهَا — نَـــوافِجُ تُلهِمُ سِفرَ الخلودِ
و تَحكِي لهذا الورَى قِصَّةً — مضَرَّجةً عن جهَاد الأسُودِ
و تروي لهذا الزمانِ مَجا — زِرَ مُـــرْتزقين لئامٍ عَبيدِ!
و قالوا: التمدُّنُ من طَبْعِنَا — و تأْنفُ منهم طِباعُ القرود!

(م.ن)

الأبيات التي ذكرناها للشاعرين في هذا القسم، تعكس إلتزامهما و روحهما الثورية، و هذا يدلّ على أنّهما ليسا غير مبالين بجرائم المحتلّين في بلدهما و ملتزمين برسالتهما الإنسانية دون تردّد. يتحدّث توفيق زيّاد عن الجرائم الوحشية التي إرتكبها الإستعمار الصهيوني في مجزرة كفر قاسم عام ١٩٥٦، مصوّراً هذه الحادثة المؤلمة، داعياً الناس إلى الوحدة. يتحدّث أيضاً عن الجرائم اللاإنسانية التي إرتكبها الإستعمار في حرب حزيران ١٩٦٧، و يدين أفعاله الشنيعة التي قتلت الشعب الفلسطيني بأبشع الطرق و دمّرت أحلامه و آماله. و يدعو الشعب إلى النضال و الوقوف ضدّ هذه الجرائم و يحثّهم على عدم التراجع أمام الإستعمار و مواجهته بكلّ ما أوتوا من قوّة. ينشد في بعض قصائده عن حادثة يوم الأرض التي وقعت عام ١٩٧٦و يذكر أحداثه المريرة و غضب الشعب و ثورته ضدّ النظام الصهيوني و يعتقد أنّ أفضل طريق للوقوف ضدّ الإستعمار الصيهونى هو تحقيق الوحدة الوطنية و تشكيل صفوف مترابطة من الشعب، تنظيم مظاهرات واسعة النطاق.

ينشد مفدي زكريا أيضاً قصائد عن جرائم الإستعمار الفرنسي في بلده. يشير إلى القصف النووي الفرنسي على الجزائر عام ١٩٦٠ و الآثار المدمّرة لهذا العمل الهمجي على الشعب الجزائري، و يدعو الناس إلى الوعي و النضال و الإنتقام من الإستعمار. يتحدّث عن يوم مجزرة ٨ ماي ١٩٤٥ و يذكر أنّ عمليات القتل الوحشية التي إرتكبها الفرنسيون تعكس الحقيقة الوجودية للإستعمار، و يريد من أعماق قلبه تدمير هؤلاء القوم الظالمين. يتحدث عن هجوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٥ فى سَكِيكَدَة، و يصوّر الأعمال الوحشية التي إرتكبها الإستعمار الفرنسي ضدّ الشعب الجزائري المضطهد، معتبراً إيّاه شعباً متوحّشاً لا يفهم شيئاً عن الحضارة و الإنسانية.

٣-٤. مدح المقاتلين و الشهداء ضدّ المستعمر الدخيل

في ظلّ الظروف التي خلقها المستعمرون بإحتلالهم لأرضي فلسطين و الجزائر، قاوم أهلهما الإستعمار، و أستشهد الكثير منهم. لذلك، نظم شعراء ملتزمون، مثل توفيق زيّاد و مفدي زكريّا، بروحهما الثورية، قصائد في مدح المقاتلين و الشهداء، و بهذه الطريقة شجّعا الناس ضدّ المستعمر الدخيل.

قد تحدّث الشاعران عن الأطفال الشهداء في قصائدهما. يتحدّث زياد في قصيدة «شهيدة» عن مكانة الطفلة الشهيدة التي أستشهدت دفاعاً عن الوطن و يصف صفاتها:

«هذه الطفلةُ، في جبهتها/ خمسُ رصاصات/ و شمسٌ و شهادة/ عينُها قُبَّرةٌ حَمرا/ و خدّاها عبادة/ سقطت زنبقةٌ مِن ذَهَبٍ/ في شارع الحرية الطالع/ من قلب المدينة.» (https://www.aldiwan.net)

يصوّر الشاعر في هذه الأبيات، قداسة الطفلة الشهيدة و براءتها و إخلاصها. و يُشبّهها، و هي مُغطّاة بدمائها من رصاص العدو، بشمسٍ تُشرق على الجميع، فينتفع الجميع من أشعتها. شبّه خدّيها بالعبادة في صفاءٍ و إشراق، لأنّ الشهيد كالعابد الذي أضاءته عبادته، فأصبح وجهه مشرقاً. كما إعتبر الطفلة الشهيدة زنبقة أهدت بإستشهادها، الحرية لأرضها.

في قصيدة أخرى، يعتبر الشاعر الأطفال ورثة أرضه و العالم، و يعدهم بأنّهم من خلال نضالهم سوف ينتصرون على الظلم و الإستعمار. فهو يقول:

«تعالوا أيُّها الأطفال/ نحلمُ بالغدِ الآتي/ و كيفَ نصيدُ أقمارَه/ تعالُوا كلُّكم .... فالظّلمُ يَنهى/ بعدَ دَهرٍ طالَ مِشوارُه/ و أنتم قد ورثتم/ كلَّ هذا الكون/ روعتَه/ ثروتَه/ و أسرارَه.» (زيّاد؛ ١٩٧٠: ٢٤٣)

يتحدّث مفدي زكريا أيضاً عن إستشهاد الأطفال الرضع نتيجةً للمذبحة الوحشية التي ارتكبها الإستعمار الفرنسي. يقول في قصيدة «و تعطلت لغة الكلام»:

لا النّارُ، لا التّقْتِيلُ، يَثْنِي عَـزمَه — لا السّجنُ، لا التّنكيلُ، لا الإعدام
لا، و المَراضِعُ عُوِّضَت أثداؤها — بِفَمِ المسدّس، و الرّصاصُ فِطام

(زكريا، ٢٠٠٧: ٤٣)

قد جاء في ديوان «اللهب المقدس» بالهامش: «كان الجند الفرنسي المتوحّش يضع فوهة المسدس في فم الأطفال الرضع و يفرغه في أحشائهم.» (م.ن) يصوّر الشاعر وحشية الحكومة الفرنسية، التي لا تلتزم بأي مبادئ إنسانية أو أخلاقية، و لا ترحم حتى الأطفال الرضع. و يؤكّد أنّ هذا الفعل اللاإنساني لا يؤثّر على إرادة الشعب الصلبة.

يشير في قصيدة «سنثأر للشعب» إلى إستشهاد الأطفال الرضع و يقول:

سنثأر، للطفْلِ الرّضيعِ، و قَد غَدَا — ـ و في فمِه الرّشاشُ ـ يَحْسُبُه رِزْقا

و لِلحُبلَيات الحُورِ، شُقّت بطونُها و لِلمُـرضعاتِ الغيدِ، أثدَاؤهَا تُلْقَى

(م.ن: ١٧٢-١٧٣)

يصوّر الشاعر في هذه الأبيات، القضاء على المذبحة التي هي نتيجة للسيطرة الإستعمارية المستمرّة على البلاد، في صورة الإنتقام من الإستعمار الفرنسي، و يبشّر الشعب بأنّنا سننتقم منهم قريباً لمذبحة الأطفال الرضع.

يعتبر توفيق زيّاد و مفدي زكريا مدح المقاتلين و الشهداء رسالةً سامية. و من خلال إنشاد قصائد عن شجاعتهم، يسعيان إلى تقديرهم على جهودهم و تضحياتهم من أجل الوطن، و تشجيع الآخرين على الإقتداء بهم. و يعتبران إستشهادهم أو أسرهم شرفاً و فخراً للأمم المظلومة. يقدّس توفيق المقاتلين في قصيدة «أناديكم» من ديوان «أشدّ على أياديكم»، و يقول عنهم: أقبّل الأرض و التراب تحت أقدامكم، و أضحي بحياتي من أجلكم، و أمنحكم ضياء عيني. فهو يقول:

«أناديكم/ أشُد على أياديكم/ أبوس الأرض تحت نِعالكم/ و أقول أفديكم/ و أهديكم ضياء عيني/ و دفء القلب أعطيكم.» (زياد؛ ١٩٩٤: ١٢٢)

يصوّر مفدي المقاتلين الجزائريين في قصيدة «نشيد الشهداء» على النحو التالي:

إعصفى يا ريـاحُ و اقصفى يا رعود
و اثخِنى يا جراح و احدِقى يـــا قيود
نحن قـــــوم أباه
ليـــس فينا جبان
قـــد سئمنا الحياة
في الشّقا و الهوان
لا نمـــــلُّ الكفاحَ لا نمـــــلُّ الجهادَ
في سبيلِ البـــلاد

(زكريا؛ ٢٠٠٧: ٧٣)

في الأبيات السابقة، يصف الشاعر شجاعة المقاتلين الجزائريين الذين لا يهابون أي صعوبات في طريق النضال، و لا يطيقون حياة القسوة و البؤس في ظلّ الإستعمار، و لا يملّون الكفاح.

يصف توفيق واقع حياة بطل من أبطال فلسطين و هو «سرحان العلى» الذى نسف ماسورة البترول فى ثورة سنة ١٩٣٦ الفلسطينية ضدّ الإستعمار البريطانى و الصيهونى و قد ذكره الشاعر فى قصيدة «سرحان و الماسورة»:

«كان يمشى نحوَ تلّ الحارثية/ حيثُ ماسورة بترول شقيّة/.../ كان يمشى نحوَ تلّ الحارثية/ و بجيبه ديناميتٌ، و نارٌ و فتيل/ و على كتفِه كانت... بندقية.» (زيّاد؛ ١٩٧٠: ٣٨٢)

ثم يبيّن ما عاناه البطل من أنواع التعذيب:

«مرّةً فی الطّوق مشّوه علی/ ألواحِ صبّار، برجلٍ حافیة/ و هوی العسکرُ بالسّوطِ علی ظَهرِه.» (م.ن: ۳۸۳)

نری في مقطع من القصيدة، أنّ الشاعر فخور بنضال سرحان، و يريد من الناس أن يحذوا حذوه:

«عاش سرحانُ العلی مطارداً عاماً و نصفاً.../ ما دَرَی حیٌّ مقرَّه.../ کانَ فی کلِّ مکان/ و إسمُه عاشَ علی کلِّ لسان.» (م.ن: ۳۸۸)

إنّ مفدي زكريا في قصيدة «الذبيح الصاعد» لا يصف مأتماً، إنّما يقدّم صورة عن لحظات الفرح و السرور، التي أحاطت بالمناضل «أحمد زبانا» و هو يتقدّم ليلقى مصيره، أي هو ذبيح شهيد صاعد إلى حيث العلوّ و الرفعة. أحمد زبانا أحد أبرز مقاتلي و شهداء ثورة التحرير الجزائرية و أستشهد عام ١٩٥٦م. يقول الشاعر:

قامَ يَختالُ کـــــــالمسیحِ وئیدا ... یَتَهـادَی نَشوانَ، یَتلُو النَّشیدا
باسِمَ الثَّغرِ، کالملائکِ، أو کالطّ ... ـفلِ، یَستقبِلُ الصّباحَ الجَدیدا
شامـــــــخاً أنفُه، جَلالاً و تیهاً ... رافعاً رأسَه، یُناجِي الخُلُودا

(زكريا؛ ٢٠٠٧: ١٧)

يصف الشاعر شجاعة أحمد زبانا الذي يمضي إلى المقصلة، دون خوف من الموت، فخوراً و مبتسماً كالمسيح (ع). إنّ هذا الوصف هو رسالة تهديد توضح للمستعمر المدمّر أنّه لا يستطيع بأيّ حال من الأحوال إبعاد المقاتلين من أجل الحريّة عن ميدان النضال؛ المقاتلين الذين لا يتردّدون في التضحية بحياتهم من أجل الحفاظ على مبادئهم و معتقداتهم و تحرير أنفسهم من أيّ قيود تحرمهم من كرامتهم.

ثم يقول:

و تَعـــالَی، مثلَ المؤذن، یتلو... ... کلمـــاتِ الهُدَی، و یَدعُو الرُّقودا
صـــــرخةٌ، تَرجفُ العوالمُ منها ... و نِـــــداءٌ مَضَی یَهُزُّ الوجودا:
«أشنقـــــونی فلستُ أخشَی حبلا ... و اصلبونی، فلستُ أخشی حدیدا»
«واقضِ یا موتُ في ما أنتَ قاضٍ ... أنـا راضٍ إن عاشَ شَعبِي سعیدا»
أنـــــــا إن متُّ فالجزائرُ تحیا، ... حُـــــــرّةً، مستقلّةً، لن تَبیدا»

(م.ن:١٨)

يقول مفدي إنّ المناضل، كأحمد زبانا، يؤمن بهدفه، و لذلك لا يتردّد في التضحية بحياته و لا يهاب الموت. يؤكّد الشاعر أنّ هدف الشهداء كأحمد زبانا هو تحرير الجزائر من الإستعمار و توفير حياة كريمة و سعيدة للشعب الجزائري.

ثم يقول:

زعموا قتلَه ... و ما صَلَبُوهُ ... ليسَ في الخالدينَ، عيسى الوحيدا
لفَّـــــه جبرئيلُ تحتَ جناحـ ... ـيه إلـــــى المُنتهَى، رَضِيّاً شهيدا

(م.ن)

يبشّر الشاعر هذا المقاتل الشهيد و غيره من المقاتلين بأنّهم إذا ماتوا في سبيل إستقلال البلاد فهم لن يصلوا إلى نهاية الطريق و الدّمار، بل ستكون لهم أفضل السعادة، و هي القرب من الملائكة و الأنبياء الإلهيين. نلاحظ أنّ مخاطب الشاعر لا ينظر إلى الموت كنهاية الحياة، بل يناضل بحماس كبير من أجل إستقلال وطنه، و إذا لم يصل إلى هدفه فهو لا يعتبر الموت سبباً للعدم، بل وسيلة لتحقيق السعادة الأبدية.

يثني زيّاد في قصيدة على «أبي داود» الذى يحمي النساء و الأطفال بإطلاق النّار على الأعداء، مع أنّه ذو يدٍ واحدة. هو يقول:

«يا أبا داوود / حِبري، دَمعي و دَمي، و أنا/ أكتبُ هذه الأسطرَ عنك / تعبيء مدفَعك الرّشاش / ذا الفوهةِ الجمرة/ بيدٍ واحدة/ باقيةً لك/ كي تحمي إمراةً و ثلاثةَ أطفال.» (زياد؛ ١٩٧٠: ٥٤٦)

إستخدم الشاعر شخصية أبي داود الذي لم يستسلم رغم معاناته من مشكلة صحية. يرى الشاعر أنّ الدفاع عن الأرض واجب على الجميع، سواءً مَن كان سليم البدن أو مَن كان يعاني من مشكلة صحية، مثل أبي داود.

يحاول مفدي في بعض القطع الشعرية من ديوان «إلياذة الجزائر»، إيقاظ الناس و دعوتهم للقتال من خلال تصوير شجاعة مقاتلي البلاد. من الأبطال الوطنيين الذين تحدّث عنهم الشاعر في هذا الديوان، هو المناضل و البطل الوطنيّ الجزائريّ الأمير عبد القادر الذي يُعدّ مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة و رمز المقاومة الجزائرية للإحتلال و الإضطهاد الفرنسي. دامت مقاومته ١٨ سنة من ١٨٣٠م إلى ١٨٤٨م. يقول الشاعر:

أيــا عبدَ قادر.... كنتَ القديرا ... و كـــانَ النِّضالُ طويلاً عسيرا
شَـــرعتَ الجِهادَ فلبّاكَ شَعبٌ ... و ناجـــاكَ رَبٌّ فكانَ النّصيرا
و نَظّمتَ جيشاً و سُستَ بلاداً ... فَكُنتَ الأميـــرَ الخبيرَ الخطيرا
و ألهَبـتَ في القابِعينَ الحَنايا ... و أيقَظتَ في الخانِعين الضَّميرا

(زكريا؛ ١٩٨٧: ٥٥)

يصوّر مفدي عبدالقادر كمؤسس جيش في الجزائر، و الذي إستطاع أن يجمع قوات البلاد بدرايته و قدرته، و بإعتماده على الله. يقول الشاعر إنّ هذا البطل القوميّ إستطاع أن يوقظ الضمائر النائمة، و يشجّعها على النضال بقوّة ضدّ الفرنسيين، و هو النضال الذي إنتهى بهزيمة

مريرة للمعتدين. يحاول الشاعر من خلال صورة بطولات أمير عبد القادر أن يخلق روح الثورة بين الناس.

و يقول:

ثمانٍ و عشراً... تَخوضُ المنايا — و تَجزِي السَّرايا و تَبنِي المَصيرا
و تَـــدمَغُ بالعـــلمِ مَن جادَلُو — كَ، فَكُنتَ الضَّليع و كانوا الحَميرا
و كـــــم رامَ إغراءَكَ العابثو — نَ فلَـــــم تَكُ غِمراً صبيّاً غزيرا
و كـــم عاهَدوكَ... و كم أخلَفُوا — و كنـــــتَ بما يُضمِرونَ بصيرا
و عَبّـــدتَ للشّعبِ دَربَ الفِدآ — و مـــا خَستَ، مُذ خَطَفُوكَ أسيرا

(م.ن)

يصوّر الشاعر النضال الطويل للأمير عبد القادر لمدة ١٨ سنة من أجل الشعب الجزائري الذي لم تنطلي عليه حيل المستعمرين؛ لأنّ هذا البطل الوطنيّ كان يعرف حيلهم. قدّم هذا البطل تضحياتٍ و كفاحاً للشعب الجزائري، و لذلك سيبقى في ذاكرة الشعب بطلاً وطنيّاً. يشجّع مفدي الشعب الجزائري على الإقتداء به في كفاحه ضدّ الإستعمار.

لطالما لعبت المرأة دوراً في الحركات و النضالات السياسية و الإجتماعية في جميع أنحاء العالم عبر التاريخ، إلا أنّ قضية مقاومة فلسطين و الجزائر للمحتلين تتجاوز بكثير مجرد حركة إجتماعية أو سياسية عادية، و في هذه الحركة، لابدّ من البحث عن دور المرأة و مكانتها المتميّزة. قد إهتم زيّاد و زكريا بهذه القضية في شعرهما نظراً لرسالتهما الفكرية الخاصة.

يقول توفيق زيّاد في قصيدة عن سلمى قشقاش، المرأة الفلسطينية المناضلة:

«يا «سلمى قشقاش»!/ عبرَ مئات الأميالِ أراكِ مُتمرِّسة/ خلفَ الرّشاش/ يا «سلمى قشقاش»/ إنّي أكتبُ هذه الكلماتِ لعينيك/ الظامئتَينِ إلى الحريّة و الحبّ/ و لجبهتِكِ المرفوعة/ في وجهِ الموتِ المنصب/ في وجهِ الدّبّاباتِ الهمجية.» (زياد؛ ١٩٧٠: ٥٣٢-٥٣٣)

يشير الشاعر في الأبيات السابقة، إلى شجاعة سلمى قشقاش في مواجهة الكيان الصهيوني و يؤكّد أنّ هذه المقاتلة الفلسطينية لا تخاف الموت و تقاتل من أجل الحرية و حبّها للوطن.

«فاطمة نسومر» هي أسطورة المقاومة و الصمود التي أظهرت شجاعة و تضحية لا مثيل لها من خلال قيادة المجموعات الثورية في جبال «جرجرة»، و الوقوف في وجه الفرنسيين. قد جاء في ديوان «إلياذة الجزائر» بالهامش: «للافاطمة نسومر إبنة سيدى محمد بن عيسى شيخ الطريقة الرحمانية والدتها للاخديجة التي تسمّى بإسمها قمة جرجرة. و زوجها سيدى الحاج عمر من قرية تاكلا، آيت ايراثن، كانت تسير الثورة في جبال جرجرة أولاً مع زوجها ثم بمفردها و هي التي صرعت الباشاغا سى الجودي عميل فرنسا، و صمدت في مقاومتها من ١٨٥٦ الى

مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٦ المجلد ١٦/ العدد ١١

١٨٥٧ على رأس المجاهدين المسلمين ضد ستة جنرالات فرنسيين: قاستو، رينو، يوسف، ماكماهون، ميسيا، ديلنيى، كلّهم تحت القيادة المباشرة للماريشال راندون الذي ترأس العمليات في نفس الحين الذي كان فيه والياً على الجزائر. للافاطمة كانت تسير جيشاً يضمّ سبعة آلاف مجاهد ضدّ جيش الماريشال راندون الذى كان يضمّ خمسة و أربعين ألف مقاتل متوفّر على جميع المعدّات الحربية الحديثة، و شملت ساحة العمليات كلّ جبال جرجرة إلى قمة للاخديجة، و الموقعة الحاسمة كانت في مجمعة اشريضن في ٢٤ جوان ١٨٥٧م، أعتقلت للافاطمة في قرية تاكلا يوم ١١ جويلية ١٨٥٧ مع أتباعها إخوان الرحمانية.» (زكريا؛ ١٩٨٧: ٥٧) يقول الشاعر فى مقطع من هذا الديوان:

و تُذَكِّرُ ثــورتُنا العارمة — بطـــولاتِ سيدتي فاطمه
يُفجِّـــر بركانُها جَرجَرا — فتَرجُفُ باريسُ و العاصمه
و خُلِّدَ بـــاسم أمِّها ذكرُه — فـــــزكَّى قداستَه الدائمة
نسومر مذ نسبوك لتاكلا — رفضتِ التواكل يا فاطمه!!
و ألهبتِ ناراً، تذيب الثلو — ج، و تعصف بالفئة الظالمه
و صَعّرَت الجنرلاتِ خدّاً — فخـــــابَت نواياهم الآثمه

(م.ن)

يشيد زكريا بشجاعة هذه المناضلة البطلة و يقدّمها للمخاطب ليظهر مشاعره تجاه هذه الشخصية الفريدة في التاريخ الجزائري، و ليشجّع الناس على مواصلة مقاومته ضدّ الإستعمار من خلال الإقتداء بهذه المناضلة.

إنّ المتتبّع لهذه الابيات يدرك أنّه عندما يريد توفيق زيّاد و مفدي زكريا أن ينشدا قصائد عن المقاومة و الدعوة إلى محاربة الإستعمار، فإنّهما يحذوان حذو الشهداء و المناضلين الوطنيين و يشيدانهم لإظهار أنّهما يواصلان على نهجهم و يستخدمان هذه الشخصيات كنموذج يحتذى به المقاتلون الآخرون.

يتحدّث توفيق زيّاد عن طفلة شهيدة أستشهدت على يد الكيان الصهيوني، و يتّخذ مِن إستشهادها قدوة لغيرها من المقاتلين. و يعتبر أطفال فلسطين مناضلي المستقبل، و ورثة الأرض الفلسطينية. كما يتحدّث مفدي زكريا في قصائده عن الأطفال الرضع الذين إستشهدوا على يد الإستعمار الفرنسي، و يؤمن بأنّ إستشهاد هؤلاء الأطفال سيقوي إرادة الشعب و سينتقم من المحتلين.

يُشيد الشاعران بالمناضلين من أجل الوطن و يُكرّمانهم. يتحدّث توفيق زيّاد عن نضال «سرحان العلى» ضدّ الإستعمار البريطاني و الكيان الصهيوني و يفخر به، بينما يتحدّث مفدي عن

نضال و إستشهاد أحمد زبانا الذي ناضل من أجل إستقلال وطنه. يشيد توفيق زيّاد أيضاً بنضال أبي داود من أجل فلسطين، كما يشيد مفدي بنضال الأمير عبدالقادر من أجل الجزائر. يتحدّث الشاعران عن المناضلات الفلسطينيات و الجزائريات. يتحدّث توفيق عن سلمى قشقاش و نضالها ضدّ الكيان الصهيوني، بينما يشيد مفدي بمقاومة للافاطمة نسومر و صمودها في وجه الفرنسين.

الخاتمة

لقد شهد العصر الحديث حركة إستعمارية كان لها أثر بالغ على الشعوب المستعمرة حيث عانت من الظلم و الإستعباد، مما دفع بأبنائها إلى نصرة أوطانهم و تسخير أقلامهم مثل ما فعل توفيق زيّاد و مفدي زكريا اللذان سخّرا قلمهما طيلة حياتهما لتحرير بلدهما، فأشعارهما هى المرآة الصادقة التى تعكس واقع مجتمعهما. تُشكّل معالجة قضية الإستعمار و مكافحته المحور الرئيسي في معظم قصائد زيّاد و زكريا، و حاول الباحث التركيز على أهم المواضيع التي أنشدها الشاعران ضدّ المستعمر الدخيل، هى: «التحرّر من السيطرة الإستعمارية»، «ذكر جرائم المحتلين و إدانة أفعالهم اللاإنسانية» و «مدح المقاتلين و الشهداء ضدّ المستعمر الدخيل». قد أدرك الشاعران بعمقٍ وجود الإستعمار و ممارساته الوحشية في بلديهما فلسطين و الجزائر. لقد كان تجلي الصوت الثوري لهذين الشاعرين ضدّ المستعمر الدخيل هو أن روحهما الصامدة و الملتزمة و الثورية بقيت قويّة حتى نهاية حياتهما، و لم يتردّدا أبداً في محاربته. الهدف من الصوت الثورى الملتزم فى قصائدهما هو تحفيز النفوس، بثّ روح الوعى و المسؤولية، إيقاظ العقول و الضمائر، التضحية و الفداء للخلاص من الإستعمار. يُطالب توفيق زيّاد و مُفدي زكريا بالتحرّر من الإستعمار و يعتبران وجوده في بلدهما ظاهرةً مشؤومة و يُدينان بشدةٍ جرائمه و فظائعه ضدّ الشعب، مُشيرَين أحداث مثل: مجزرة كفر قاسم، حرب حزيران ١٩٦٧، يوم الأرض (فى قصائد زياد)، و أحداث كـ: التفجير النووي الفرنسي بالجزائر، مجازر ٨ ماى ١٩٤٥، هجوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٥ فى سَكِيكَدَة (فى قصائد زكريا). يتحدّث الشاعران في نضالهما ضدّ الإستعمار عن مقاتلين و شهداء مثل «سرحان العلى»، «أبو داود» و «سلمى قشقاش» (في قصائد توفيق)، و «أحمد زبانا»، «أمير عبدالقادر»، «للافاطمة نسومر» (في قصائد مفدي) لتعزيز روح المقاومة بين الشعب. و هذا لن يتحقق إلا بصوت ثوري ملتزم لشاعرين إستطاعا دعوة الشعب إلى الصمود و الثبات و التضحية من أجل الوطن ضدّ المستعمر الدخيل.

المصادر و المراجع:

الدواوين:

١.زكريا، مفدى، (١٩٨٧): إلياذة الجزائر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

٢._____، _____، (٢٠٠٧): اللهب المقدس، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

٣.زياد، توفيق، (١٩٧٠): ديوان توفيق زياد، بيروت، دار العودة.

٤._____، _____، (١٩٩٤): سجناء الحريه و قصائد ممنوعة أخرى، عكا، مطبعه أبو رحمون.

٥._____، _____، (١٩٩٤): أشدّ على أياديكم، عكا، مطبعه أبو رحمون.

٦._____، _____، (١٩٩٤): أنا من هذى المدينة و قصائد جديدة أخرى، عكا، مطبعة أبو رحمون.

الكتب:

١.القرآن الكريم

٢.آجيورون، شارل روبير، (١٩٨٢): تأريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، بيروت، منشورات عويدات.

٣.بلاح، بشير؛ رابح لوئيسى؛ عبدالحميد عبدوس، (٢٠٠٦): تأريخ الجزائر المعاصر من ١٨٣٠ إلى ١٩٨٩، الجزائر، دار المعرفة.

٤.الجيوسي، سلمي الخضراء، (١٩٩٧): موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات و النشر.

٥.خرفى، صالح، (١٩٨٧): الشعر الجزائرى الحديث، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

٦.الركيبى، عبدالله، (د.ت): دراسات فى الشعر العربى الجزائرى الحديث، القاهرة، الدار القومية للطباعة و النشر.

٧.السعدي، غازي، (١٩٨٥): من ملفّات الإرهاب الصهيوني في فلسطين: مجازر و ممارسات (١٩٣٦-١٩٨٣)، عمان، دار الجليل للنشر و الدراسات و الأبحاث الفلسطينية.

٨.السنوسي، محمد الهادي، (٢٠٠٧): شعراء الجزائر في العصر الحاضر، قسنطية، دار نماء الدين للنشر و التوزيع.

٩.صالح، يحيى الشيخ، (١٩٨٧): شعر الثورة عند مفدي زكريا، الجزائر، دار البحث للطباعة و النشر.

١٠.قصاب، وليد، (٢٠٠٩): *مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية اسلامية*، دمشق، دار الفكر.

١١.مصطفى، خالد على، (١٩٧٨): الشعر الفلسطينى الحديث ١٩٤٨-١٩٧٠، بغداد، منشورات وزارة الثقافة و الفنون.
١٢.اليسوعى، روبرت كامبل، (١٩٩٦): أعلام الأدب العربى المعاصر (سير و سير ذاتية)، بيروت، مركز الدراسات للعالم العربى المعاصر.

الرسائل:

١.دحمانى، حمة، (٢٠٠٥): ظاهرة الغربة فى شعر مفدى زكريا، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب و اللغة جامعة منتوى قسنطية.
٢.رجاء، برتمة، (٢٠١٥): المركز و الهامش فى ديوان اللهب المقدس لمفدى زكريا، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير فى الآداب و اللغة العربية، كلية الآداب و اللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة.
٣.صالح، سارة محمود أحمد، (٢٠٠٥): صورة مجزرة كفر قاسم فى الشعر الفلسطينى، رسالة لنيل شهادة الماجستير، قسم اللغة العربية، جامعة الخليل.
٤.عزموطى، مقبل عبدالقادر محمود، (٢٠١٩): دراسة مقارنة فى أشكال المقاومة الفلسطينية منذ عام ١٩٣٦ حتى العام ٢٠١٨: المقاومة المدنية من منظور الإنجاز السياسى، رسالة لنيل درجة الماجستير فى التخطيط و التنمية السياسية، كلية الدراسات العليا، فلسطين، جامعة النجاح الوطنية فى نابلس.

المقالات:

١.طبشي، ابراهيم، (٢٠١٤): جمالية المبالغة فى ديوان «اللهب المقدس»، الجزائر، مجلة الأثر، العدد ٢١، ديسمبر، صص ٣٧-٤٦.
٢.قادرى، فاطمة، (١٣٨٥): صور من الأثر القرآنى لدى مفدى زكريا شاعر الثورة الجزائرية، مجلة كاوش نامه، رقم ١٣، صص ١٧٧-١٩٦.
٣.نصار، سيمون، (٢٠٠٢): توفيق زياد: و ليس من قضية إلا قضية القصيدة نفسها، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ١٣، العدد ٤٩، شتاء، صص ١١٣-١٢٢.

المواقع الإنترنتية:

١.مواسى، فاروق، (٢٠٠٥): النفَس القصصي في شعر توفيق زياد، المحاضرة التي ألقيت في مركز الحسين الثقافي في عمان، اليوم الخامس، الشهر الثانى. (http://www.arabmail.de/Faruq_Mawasi)

٢.موسوعة الشعر العربى (https://www.aldiwan.net)

Sources and references:

Collections:

1- Zakaria, Mufdi, (1987): The Iliad of Algeria, Algiers, National Book Foundation.

2- The Sacred Flame, Algiers, National Foundation for Printing Arts. :(٢٠٠٧) ،_____ ،_____

3- Ziad, Tawfiq, (1970): Tawfiq Ziad's Diwan, Beirut, Dar Al-Awda.

4- Prisoners of Freedom and Other Forbidden Poems, Acre, Abu Rahmoun Press. :(١٩٩٤) ،____ ،____

5- I Strengthen Your Hands, Acre, Abu Rahmoun Press . :(١٩٩٤) ،____ ،____

6- I Am from This City and Other New Poems, Acre, Abu Rahmoun Press. :(١٩٩٤) ،____ ،____

Books:

1- The Holy Quran.

2- Agiron, Charles Robert, (1982): History of Contemporary Algeria, translated by Issa Asfour, Beirut, Awidat Publications.

3- Balah, Bashir; Rabah Louisi; Abdelhamid Abdous, (2006): History of Contemporary Algeria from 1830 to 1989, Algiers, Dar Al-Ma'rifa.

4- Al-Jayyousi, Salma Al-Khadra, (1997): Encyclopedia of Contemporary Palestinian Literature, Beirut, Arab Foundation for Studies and Publishing.

5- Kharfi, Saleh, (1987): Modern Algerian Poetry, Algeria, National Book Foundation.

6- Al-Rukaibi, Abdullah, (n.d.): Studies in Modern Algerian Arabic Poetry, Cairo, National House for Printing and Publishing.

7- Al-Saadi, Ghazi, (1985): From the Files of Zionist Terrorism in Palestine: Massacres and Practices (1936-1983), Amman, Dar Al-Jalil for Publishing, Studies, and Palestinian Research.

8- Al-Sanussi, Muhammad al-Hadi, (2007): Poets of Algeria in the Present Era, Constantine, Dar Namaa al-Din for Publishing and Distribution.

9- Saleh, Yahya al-Sheikh, (1987): The Poetry of Revolution by Mufdi Zakaria, Algeria, Dar al-Bahth for Printing and Publishing..

10- Qassab, Walid, (2009): Methods of Modern Literary Criticism: An Islamic Perspective, Damascus, Dar al-Fikr.

11- Mustafa, Khalid Ali, (1978): Modern Palestinian Poetry 1948-1970, Baghdad, Ministry of Culture and Arts Publications.

12- Al-Yasoei, Robert Campbell, (1996): Figures of Contemporary Arabic Literature (Biographies and Autobiographies), Beirut, Center for Studies of the Contemporary Arab World.

Letters:

1- Dahmani, Hama, (2005): The Phenomenon of Alienation in the Poetry of Mufdi Zakaria, a thesis submitted for a master's degree, Faculty of Arts and Language, University of Constantine.

2- Raja, Bartama, (2015): The Center and the Margin in Mufdi Zakaria's Diwan al-Lahb al-Muqaddas (The Sacred Flame), a thesis submitted for a master's degree in

Arabic Language and Literature, Faculty of Arts and Languages, University of Mohamed Khider, Biskra.
3- Nassar, Simon, (2002): Tawfiq Ziad: And there is no issue except the issue of the poem itself, Journal of Palestine Studies, Volume 13, Issue 49, Winter, pp. 113-122.

Websites:
1- Mawasi, Farouk, (2005): The Narrative Breath in Tawfiq Zayyad's Poetry, a lecture delivered at the Hussein Cultural Center in Amman, the fifth day of the second month. (http://www.arabmail.de/Faruq_Mawasi).
2- Encyclopedia of Arabic Poetry (https://www.aldiwan.net).